الفصل الثانى

الحاجة الثقافية التى دعت إلى ظهور الشروح

١ — فى العصر الجاهلى :

كانت البادية « البيئة الثقافية » للشعر الجاهلى ، ففيها نشأ ونما ، ثم ترعرع وازدهر . كان فى عهد بداية وطفولة ، ثم استوى وشب قصيدا متينا فى مرحلته النهائية ، تلك المرحلة التى استقرت له فيها مناهجه الواضحة ، وحدوده المرسومة ، وتقاليده المحتومة . فكان هذا الشعر مرآة صادقة لهذه البيئة ببساطتها وخلوها من التعقيد والمبالغة ، وانعكاسا أمينا لما يدور فيها من حياة بدوية أصيلة ، وخلاصة لما انتهت إليه تجارب الجاهليين فى التعبير الشعرى .

جرى الشاعر — الجاهلى — فى نظمه على طبعه وسجيته ، فلم يتكلف القول فى ما لم يشعر به ، ولا تكلف الإحاطة والشمول ، ولا التحليل والتعليل ، بل الطبع والسجية ، والصدق والواقعية فى كل ما ينظم أو يعبر .

يقول الجاحظ : « وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام وليس هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة أو المناقلة ، أو عند صراخ أو فى حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة لمذهب ، وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا .. وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله

فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب »(١) .

كان يحرك وجدان هذا الشاعر ويهيج قريحته عاملان مؤثران(٢) :

أحدهما : موقفه من مقدرات قبيلته ، وما تتطلبه منه كأداة من أدواتها فى الدفاع عن وجودها الحيوى(٣) .

---

(١) البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

ولأستاذنا الدكتور شوقى ضيف رأى يخالف ما ذهبنا إليه مع الجاحظ ، إذ يقول : « إن من يرجع إلى العصر الجاهلى يجد الشعر خاضعاً لتقاليد ورسوم كثيرة يتوارثها الشعراء ، سواء فى ألفاظه ومعانيه ، أم فى أوزانه وقوافيه بحيث لا يستطيع مطلقاً أن يذعن لفكرة الطبع وما يطوى فيها من أن الشعر فطرة وإلهام فقد كان الجاهليون يصنعون شعرهم صناعة ويعملونه عملا » (الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، ص ٨) .

ويتفق مع ما ذهبنا إليه ويرجحه – قول بلاشير : « إن الأثر الشعرى فى العصر الجاهلى عند الشعراء البدو والحضر مصدره فى الأصل الإرتجال . وقد نقل إلينا المورخون المأمون بروح مجاملة لا تخلو من سذاجة طائفة من النوادر الدالة على أن البدو ، رجالا ونساءاً ، كباراً وصغاراً ، كانوا يرتجلون الأبيات التى ستغدو موضع إعجاب الأجيال المقبلة ، ويعدون من الحقائق خبر ارتجال الحارث بن حزة اليشكرى معلقة طويلة جداً دعيت باسمه . على أننا نقرأ بأن ملكة ارتجال الشعر كانت منتشرة جداً فى الصحراء » (تاريخ الأدب العربى ، ج ١ ، ص ٩٥) .

ولأستاذنا الدكتور يوسف خليف بحث عميق حول نشأة الشعر الجاهلى وتطوره يتناول فيه الكثير من القضايا ويحللها تحليلا دقيقاً . أنظر نظريته فى مدرسة الطبع ومدرسة الصنعة . (مجلة عالم الفكر الكويتية ، المجلد الرابع ، العدد الرابع ، يناير – مارس ١٩٧٤) ، صفحة ١٦١ وما بعدها) .

(٢) الشعر الجاهلى للدكتور سيد حنفى ، ص ٣٦ . وأنظر ما كتبه الأستاذ أحمد أمين حول هذا الموضوع فى كتابه فجر الإسلام ، ص ٥٩ وما بعدها .

(٣) وفى ذلك يقول الأعشى مخاطباً قومه :

وأدفع عن أعراضكم وأعيركم لساناً كمِقْراضِ الحفاجىّ مِلْحَبَا

الملحب : القاطع أنظر ديوانه (ق ١٤ – ب ٣١)

وأنظر فى ذلك أيضاً أبيات مزرد بن ضرار فى المفضليات ، ص ١٧٨ طبعه لايل .

ولقد كانت القبائل تفاخر بشعرائها وتدعى أن شاعرها هو الأول وتقدمه على كل الشعراء (المزهر ٢–٢٩٦) وبلغ من عناية القبائل بشعر شعرائها أن بنى تغلب كانوا يعظمون قصيدة عمرو بن كلثوم المعلقة ، وكان يرويها صغارهم وكبارهم حتى هجوا بذلك .

أنظر ما قاله بعض شعراء بكر بن وائل فى هجائهم – فى الأغانى ١١–٥٤).

والآخر : طبعه الإنسانى وحقه فى التعبير عنه من خلال . ربه اليومية ، وممارسته للحياة فى هذه البيئة بكل ما تشتمل عليه من مكونات يتفاعل بها من أجل تحقيق ذاته الحية ، ووجوده المتلمس لعناصر تحقيق هذه الذات .

فى هذه البيئة البدوية ، عاش الشاعر لفنه ، سواء حين عبر عن وجدان القبيلة ، أو حين عبر عن خاصة نفسه ، فلم يكن بحاجة إلى تكلف أو تصنع ما دام الدافع على النظم ينبع من شعوره ، لا من إرادته أو عقله فحسب . ومن هنا كانت السمة الغالبة على هذا الشعر أنه « شعر وجدانى »(١) صدر عن وجدان فردى أو جماعى ، ليخاطب ويحرك الوجدان الفردى أو الجمعى الكل يفهمه ويتذوقه ، يعرف مضمونه ومراميه ، ويدرك مكنونه ومعانيه .

لذلك كان — هذا الشعر — معرضا للقيم العربية(٢) ، محركا للعواطف الإنسانية ، لأنه يحمل صفاء قريحتهم ، وقوة عصبيتهم ، وكمال حريتهم ، كما أنه ديوان علمهم وحكمهم ، وسجل وقائعهم وسيرهم ، وشاهد صوابهم وخطئهم ، ومادة حوارهم وسمرهم .

كانوا جميعا يحفظونه ويروونه ، يتناقلونه ويتشدونه .. لأنه من واقع بيئتهم ، ومجموع ثقافتهم ، وهم جميعاً شركاء فيه ، وكل عناصره مملوكة لهم ، يرجعون إليه عند اختلافهم فى الأنساب والحروب ، لأنه مستودع علومهم ، وحافظ آدابهم ، ومعدن أخبارهم(٣) .

تدل كل الدلائل على أن البادية العربية — منبت الشعر وبيئته — كانت قد

---

(١) يسميه الدكتور نجيب البهبيتى (الشعر الغنى » تاريخ الشعر العربى ، ص ١٤١ .

(٢) « فكل أمة تعتمد على استبقاء مآثرها ، وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب ، وشكل من الأشكال ، وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها » (الجاحظ فى الحيوان ١–٧١) .

(٣) يقول ابن قتيبة : « الشعر معدن علم العرب ، وسفر حكمتها ، وديوان أخبارها ، ومستودع أيامها ، والسور المضروب حول مآثرها ، والخندق المحجوز على مفاخرها ، والشاهد العدل على يوم النفار ، والحجة القاطعة عند الخصام » . (عيون الأخبار ٢–١٨٥) .

اكتملت لها كل مكونات الحياة الأدبية بمعناها الشامل : الشعر ، والشاعر ، والجمهور الأدبى .

برز ذلك فى عدة أمور :

أولا : استقرار الشعر حيث وصل إلى مرحلة عظيمة من الرقى والازدهار والتكامل الفنى . وهذه المرحلة تحمل من الخصائص والسمات — سواء فى الشكل والمضمون ، أم فى الأوزان والقوافى — ما يدل دلالة صريحة على درجة كبيرة من النضج العقلى . « فقد وجدنا أنفسنا أمام شعر أرستقراطى يتصل بكبريات مسائل الحياة فى الجزيرة العربية ، ولما كان هذا الشعر من قول هذه الصفوة الرفيعة ، جاء هو الآخر ممتازاً رفيعا فى صياغته ومبانيه . وأوزانه ومعانيه ، ثم أنهم لما كانوا من طبقة نالت حظها من الثقافة وسمو المنبت كان لهم من التقدم ما لم يكن لسواهم ، فقد تهيأت لهم لهجة أدبية واحدة الشعر الذى قالوه ، وكان ساعد على تكوين هذه اللهجة من قبل سعة الاتصال بين أجزاء الجزيرة(١) .

---

(١) تاريخ الشعر العربى : نجيب البهبيتى ، ص ٤٥ . وهذا الرأى يوافق ما ذهب إليه الدكتور شوقى ضيف حيث يقول : « يدل ما بين أيدينا من شعر جاهلى دلالة قاطعة على أن القبائل العربية الشمالية اصطلحت فيما بينها على لهجة أدبية فصحى ، كان الشعراء على اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم ، فالشاعر حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته المحلية إلى هذه اللهجة الأدبية العامة ، ومن ثم اختفت جملة الخصائص التى تميزت بها كل قبيلة فى لهجتها ، فلم تتضح فى شعر شعرائهم إلا قليلا جداً . (العصر الجاهلى ، ص ١٣١) .

وهذا ما ذهب إليه المستشرقون أيضاً — إلا أن الأستاذ أحمد أمين له تحفظ على هذا الرأى . ويقول أن هذا فرض يحتاج إلى نظر ، وربما يستأنس له بقول ابن جنى فى الخصائص : « فإذا اجتمع فى لغة رجل لفتان فصاعدا ، فينبغى أن تتأمل حال كلامه ، فإن كانت اللفظتان فى كلامه متساويتين فى الاستعمال ، كثرتها واحدة ، فإن أخلق الأمر به أن تكون قبيلته تواضعت فى ذلك المعنى على تينك اللفظتين ، لأن العرب قد تفعل ذلك للحاجة إليه فى أوزان أشعارها .. إلخ » . (أنظر ضحى الإسلام ٢-٢٥٤ ، والخصائص ١-٢٧٦) .

ثانيا : أن هذا الشعر كان حلقة اتصال بين ماضى العرب وواقعهم ، ومعبراً لمستقبلهم لذلك وضع موضع العناية والدراسة أمام شعراء فحول مثقفين — درسوه دراسة دائبة متصلة لمتابعة مواكب السابقين .

كان لزاما على الشاعر أن يثقف نفسه ، وأن يحيط بمنهج أجداده ، ويتقن ما رسموه من حدود ، وما تواضعوا عليه من تقاليد ، وألا يألوا جهدا فى دراسة شعرهم ، ليكون على بينة من أمرهم ، ومعارف عصرهم ، وقيمهم ومثلهم ، ليمرن ملكته الشعرية ، وليكتسب خبرتهم وذوقهم الفنى . كان على الشاعر الجاهلى أن يسلك طريقاً فنيا مهدت أرضه ، ووضحت معالمه ، الرواية أوله ، وحفظ المعانى نبراسه ، وخلود الشعر نهايته . كان عليه أن يكون راوية ، يروى شعر أسلافه ، ويحفظ معانيهم ، ويتعرف صورهم الفنية لكى يصير فحلا ، سألوا رؤبة بن العجاج عن الفحل من الشعراء قال :

« هو الراوية » ، وعلل لذلك يونس بن حبيب بأنه يجمع إلى جيد شعره معرفة جيد غيره(١) ويقرر هذه الحقيقة أيضا علماء الشعر فى غير موضع ... يقول ابن رشيق : « لا يصير الشاعر فى قريض الشعر فحلا حتى يروى أشعار العرب ، ويسمع الأخبار ، ويعرف المعانى ، وتدور فى مسامعه الألفاظ »(٢)

ويقول الجرجانى : « وقد كانت العرب تروى وتحفظ ، ويعرف بعضها واية شعر بعض ، كما قيل أن زهيراً كان راوية أوس ، وأن الحطيئة وية زهير ، وأن أبا زهير راوية ساعدة بن جويرية ، فبلغ هؤلاء فى الشعر حيث تراهم »(٣) .

عرف الشعراء هذه الحقيقة ، فجعلوا يتعرفون معانى بعضهم البعض ، يتدارسونها ويفهمونها ، ويأخذ المتأخر عن المتقدم ، ويتاثر هذا الشاعر بذاك فى معنى من معانيه ويجارى هذا الشاعر ذاك فى غرض من أغراضه ..

---

(١) العمدة ، ج ١ ، ص ٧٦ ، مطبعة السعادة ، سنة ١٩٠٧ م .

(٢) العمدة ، ج ١ ، ص ١٣٢ .

(٣) الوساطة بين المتنبى وخصومه ، ص ١٥ (ط دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٤٥ م).

وفى ذلك يقول الجاحظ : « ولا يعلم فى الأرض شاعر متقدم فى تشبيه مصيب تام ، وفى معنى غريب عجيب ، أو فى معنى شريف كريم ، أو فى بديع مخترع ، ألا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه ، إن هو لم يعد عن لفظه فيسرق بعضه ، أو يدعيه بأسره ، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى ، ويجعل نفسه شريكا فيه ، كالمعنى الذى تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم ، وأعاريض أشعارهم ، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه ، أو لعله أن يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط ، وقال أنه خطر على بالى من غير سماع كما خطر على بال الأول هذا إذا قرعوه به ، إلا ما كان من عنترة فى صفة الذباب ، فإنه وصفه فأجاد صفته فتحامى معناه جميع الشعراء ، فلم يعرض له أحد منهم (١)» ويؤكد هذا القول ويدعمه قول عنترة نفسه فى فاتحة معلقته :

هل غادر الشعراء من متردم

يعنى — هذا أبقى الشعراء لأحد معنى إلا وقد سبقوا إليه ، وهل يتهيأ لأحد معنى لم يسبق إليه ، كما يقول التبريزى(٢) . فدل عنترة بهذا على أنه حين حاول أن يأتى بمعنى جديد ، أو فكرة طريفة ، استعرض لذلك ما فى ذاكرته ، وقلب محفوظه ، واجتر أشعار السابقين والمعاصرين ومعانيهم ، فوجد أنهم استغرقوا كل معنى ، واستنفدوا كل صورة ، واستهلكوا كل موضوع .

ولم يتوقف مبدأ أخذ الشعراء عن بعضهم على المعانى فقط ، بل تعدى ذلك إلى الألفاظ والأبيات والصور الجمالية والمواقف الإنسانية .. وقد سجل بعضهم هذه الحقيقة فى شعرهم ، من مثل قول امرىء القيس :

---

(١) الحيوان ٣-٣١١ (فصل أخذ الشعراء بعضهم معانى بعض) بتحقيق عبد السلام هارون طبع الحلبى ، سنة ١٩٣٨ م .

(٢) شرح القصائد العشر ، ص ٣١٧ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، طبع محمد على صبيح ، سنة ١٩٦٤ م .

عُوجا على الطَّلَلِ المحيلِ لعلنا نبكي الديارَ كما بكى ابنُ خذام(١)

وقول كعب بن زهير :

ما أرانا نقولُ إلاّ مُعَاراً أو مَعاداً من لفظنا مكْرُورا(٢)

فما يقوله امرؤ القيس لصاحبه من أنه يريد أن يبكى «كما بكى ابن خذام» وما يقوله كعب من أن الشعراء يكررون ويعيدون فى ألفاظهم . كل ذلك دليل على أن الشاعر القديم كان يأخذ فنه بنوع من الدراسة والمتابعة لموضوعات المتقدمين عليه وألفاظهم ونهجهم العام ، وهذا واضح الدلالة على ما قررناه — من أن الشعر كان مجالاً للدراسة الدائبة الواعية ، يلتمس فيها الشعراء المثل ، ويستشفون منها القيم ، وأن الشاعر كان لا بد له — فيما يعانيه من ظروف الخلق والإبداع — من التماس الثقافة الفنية من التراث المتوارث ، يتهيأ له بعضها من رواية شعرهم ، ودراسة صورهم ومعانيهم ، كما يتهيأ له بعضها الآخر مما تتيح له تجارب الحياة من ألوان المعرفة .

أما العنصر الثالث والمكمل لمكونات الحياة الأدبية — فى هذه البيئة — فهو الجمهور الأدبى ، الذى يفهم الشعر بالسليقة ، وتتجاوب به جوانبه ، ويستطيع بذلك أن يعجب به ويقدّره ويحكم عليه ، فيرفع من هذا الشاعر ويضع من ذلك ، ويهتف لهذا الشاعر ، ويسخر من ذلك بناء على الفهم والاستيعاب والتذوق .

وليس من شك فى أن أبرز ما يميز الجمهور المتأدب — فى هذا العصر الجاهلى — هو ذلك الحس البيانى المرهف ، وغلبة هذا الحس عليه ، وأثره العميق فى كل مقدرات حياته وأهوائه ، يشنف أسماعه « مقلدات الشعراء »(٣)

---

(١) ديوانه (ق ١٥ — ب ٤ ، ص ١١٤ ، طبع دار المعارف (وقوله : « عوجا » أى اعطفا رواحلكما ، وعوجا على الطلل المحيل ، يعنى الذى أتى عليه حول فتغير ، وابن خذام : رجل ذكر الديار قبل امرىء القيس وبكى عليها .

(٢) ديوانه ص ١٥٤ ، طبع دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٦٥ م .

(٣) قال ابن خالويه : « يقال أنشدته مقلدات الشعراء أى أبياتهم الطنانة المستحسنة . » (المزهر ٢ : ٣٠٦) .

يثير ثائرته « هُزْرُوف الشعر »(١) . فهو جمهور سريع البديهة ، لماح ، جياش العاطفة ، يأسره الجمال ، ويخلبه البيان .

وقد نجد دليلا فنياً ملموسا على هذا الحس البيانى المتبادل بين الشاعر وجمهوره الأدنى فيما نلمه من أثر البيت مدحا أو هجاء فى حياته وحياة قومه.

يؤكد هذه الحقيقة مزرد بن ضرار الشيبانى ، فيصور مدى اعتماد جمهوره — قومه وأبناء عشيرته — عليه فى أن يصل بشعره إلى ما يريد ، فيذود عن القبيلة وأعراضها ، ويُفاخر بمآثرها ومفاخرها ، ويعبر عن طموحها وأمانيها ، وينافح بصرامة عنها ، ويهدد من يفكر فى النيل منها أو الاعتداء عليها .. يقول فى لاميته(٢) :

فَقَدْ علمُوا فى سالفِ الدهر أنَّنى
مِعَنٌّ إذا جَدَّ الجِرَاء ونَابِلُ
زعيمَ لمَنْ قاذفتُه بأوابـــد
يُغَنِّى بها السَّارِى وتُحدَى الرواحلُ
مذكّره تُلقَى كثيراً رواتُهـا
ضواحٍ لها فى كل أرضٍ أزَامِلَ
يُكِرُّ فلا ترادُ إلا استنارةً
إذا رَأزَتْ الشعرَ الشَّفاةُ العَوامِلُ
فمن أرْمِهِ منها ببيتٍ يَنُحْ بـــه
كَشَامَةِ وَجْهٍ لَيْس للشَّامِ غاسِلُ
كذاك جَزَائى فى الهدىَ وإن أَقُلْ
فلا البَحْرُ مَنْزُوحٌ ولا الصَّوْتُ صَاحِلُ

فالشاعر يعرف بمكانته لدى الجمهور ، وأثر نظمه فيه ، إذا جدت خصومة ففيه فضل يعترض به على أعدائه ، يهجوهم هجاءاً يبقى عليهم عاره ،

---

(١) كان فى الجاهلية نوع ردىء من الشعر يقال له « الهزروف » يجمع بين الشعر والكلام . (أنظر أمثلة منه فى الموشح ، ص ٣٥٦ ، طبع السلفية) .

(١) المفضليات ، ص ١٧٨ ، طبعة لايل .

ويلاحقهم أينما ساروا ، يحفظه الناس ، ويتذاكرونه فى منتدياتهم ، ويتناقله الرواة « يحدو به الحادى رواحله ، ويغنى به السارى قوافله » .

وإذا كان الشعراء يعرفون قدر جمهورهم ، ويدركون مدى أثره وقيمته ويقدرون رأيه وكلمته ، فيلزمون أنفسهم لوازم عدة فى فنهم الشعرى ، ويتوخون الكمال والجمال فى نتاج قرائحهم وخلاصة تجاربهم ، ليحققوا له المتعة الفنية والنفسية التى تدخل البهجة والنشوة على قلبه .. فقد كان هذا الجمهور المتأدب الذواقة ، يراقبهم ويشجعهم ويحثهم على التفوق والإجادة الفنية ، فارتبط الشاعر بجمهوره برباط من التجاوب الفكرى والتبادل الفنى أو قل تأثير وتأثر ، ومشاركة فنية وجدانية تربط بين الفنان وملتقى فنه ، مشاركة ينميها ويغذيها ذوق عام يحث الشعراء على التجويد والتجديد .. يقرر هذه الحقيقة الجاحظ ، فيتحدث عن أثر الجمهور الأدبى فى الشعر والشعراء ، فيقول : « وهم يمدحون الحذق والرفق والتخلص إلى حبات القلوب ، وإلى إصابة عيون المعانى ، ويقولون أصاب الهدف إذا أصاب الحق فى الجملة ، ويقولون قرطس فلان وأصاب القرطاس ، إذا كان أجود إصابة من الأول ، فإذا قالوا : رمى فأصاب الغُرّة ، وأصاب عين القرطاس ، فهو الذى ليس فوقه أحد ، ومن ذلك قولهم : «فلان يُفلِّ الحزّ ويصيب المفصل ويضع الهنّاء مواضع النقب »(١) . ولعل مما يفسر ذلك أيضاً أنهم كانوا يسمون الشعراء بأسماء تصور مهارتهم وإجادتهم(٢) . فربيعة بن عدى كان يسمى المهلهل لأنه أول من هلهل الشعر وأرقه(٣) . وكان طفيل الخيل يسمى

---

(١) البيان والتبيين ١-١٤٧ .

وقولهم : فلان يفل الحز ويصيب المفصل أخذوه من صفة الجزار الحاذق ، فجعلوه مثلا للمصيب الموجز ، والهناء : القطران ، كانوا يضعونه على النقب جمع نقبة ، وهى أول ما يبدو من الجرب فى الإبل .

(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، للدكتور شوقى ضيف ، ص ٢٣ .

(٣) الأغانى ٥-٧٥ (دار الكتب) .

المحبر لتزيينه شعره(١) . وكان النمر بن تولب يسمى فى الجاهلية الكيّس لحسن شعره(٢) ، وكذلك سمى النابغة باسمه لنبوغه فى شعره (٣) ، كما سمى المرقش باسمه لتحسينه شعره وتنميقه(٤) ، وسمى علقمة بالفحل لجودة أشعاره(٥) .

وبجانب ذلك أسماء أخرى مثل المثقب والمنخل والأفوه ، وقد سموا القصائد بأسماء تصور هى الأخرى مبلغ تفوقهم وإجادتهم فسموها اليتيمة(٦) وسموها السموط (٧) ، وسموها الحوليات والمقلدات والمنفحات والمحكمات(٨)

وقد تجد الشاعر منهم ربما زال عن سننهم شيئا فيقولون له: سانَدْت وأقويت وأكفأت وأوطأت (٩) .. وأظهروا قصوره ، وبينوا تقصيره (١٠)

وبذلك اجتمعت لهذه البيئة — كما قلنا سابقا — كل مقومات الحياة الأدبية الناضجة .

— حدود أدبية مستقرة ... الشعر .

— اتصال دائم بالتراث ودراسة دائبة مستمرة — من الشعراء لكل عناصره

— تفاعل جمهور متأدب ذواقة .. مثقف لماح .

---

(١) المفضليات ، ص ٤١٠ (طبعة لأيل) .

(٢) الشعر والشعراء ، ص ١٧٣ .

(٣) العمدة ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

(٤) المفضليات ، ص ٤١٠ ، ٤٨٥ .

(٥) الأغانى ٢١-١١٣ (ساسى) .

(٦) الأغانى ١٣-١٠٢ (دار الكتب) .

(٧) الأغانى ٢١-١١٢ (ساسى) .

(٨) البيان والتبيين ٢-٩ .

(٩) تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة ، ص ١٤ ، وأنظر فى معنى السناد والأقواء والإكفاء والإيطاء (الشعر والشعراء ١-٤٢-٤٤ ؛ الموشح ص ١٤-٢٦ ؛ نقد الشعر ص ٧٠-٨١ ؛ العمدة ١-١٤١ — ١٤٧) .

(١٠) أنظر ما كتبه قدامه بن جعفر من ملاحظات القدماء على الشعر (نقد الشعر ص ٦٥ وما بعدها) وما ذكره المرزبانى عن الشعر الردىء وما جاء فيه (الموشح ص ٣٥٨ وما بعدها) .

وهذه العناصر كلها لا يمكن أن تتوافر بالصورة التى رأيناها إلا حينما تكون الحياة الأدبية فى المجتمع ، فى قمة نشاطها ، وأوج ازدهارها ، حيث عبر الشعراء بشعرهم عن حاجات جمهور بيئتهم — متلقى الفن .. الناقد المقدر الذى كان يذوق جمال الكلام ، ويعرف مواضع الإصابة ومواقع الخطأ ، وإن لم يرجع إلى قوانين تتلقى ، أو قواعد تُتَدارس وتتعلم ، أو شروح توضح المضمون والمقصود ، ولكن قوة الفطرة ، وسلامة الطبع ، ورهافة الحس ، ودقة الشعور ، تهديه إلى تذوق هذا الشعر وفهمه ، واستحسان ما يستحسن ، واستهجان ما يستهجن ، وقد كان فيهم حكام خبراء بفهم الكلام ونقده .

ولما كان الأدب يتأثر بالبيئة والثقافة وطبيعة المجتمع وظروفه السياسية والاجتماعية ، فإن الشاعر وفنه ومتلقى فنه شركاء فى هذا التأثر ، تربطهم وحدة البيئة والفن واللغة والثقافة والهدف والمصير . لهذا كانت السمة الواضحة فى شعرهم هى : « الواقعية » . الواقعية المستمدة من البيئة ، والمتصلة بهذه الثقافة ، والمعبرة عن هذا المجتمع .. فالشاعر يعبر عن الواقع الذى يراه ويعيش فيه ، لأنه إبن بيئته ، المخلص لها ، الصادق الإحساس بها ، الصادق التعبير عنها ، فأخيلته مشتقة من البيئة التى يعيش فيها الشاعر .

وأفكاره بسيطة وقريبة ، ليس فيها مبالغات أو تعمق فى تقريرها ..

وعواطفه صادقة معبرة عن انفعال الشاعر إزاء التجربة الشعورية التى يحسها دون زيف أو خداع أو مبالغة .

ومعانيه مستمدة من الواقع الملموس والمحسوس ، من البيئة ، ومتفقة والعوامل الموجهة له فى التعبير . وهكذا طبعت الواقعية هذا الشعر — فى مجموعه بهذا الطابع المميز ، فليست هناك مبالغات فى تصوير الفكرة ، وإنما هناك تقرير للواقع ، وتصوير المحسوسات التى يعيش بينها الشاعر ، وحتى فى ترجمة العواطف — التى يكون مجال المغالاة والمبالغة متاحا فيها ، نرى الشاعر الجاهلى يصورها فى صدق وواقعية مجردة من أية مبالغة أو إغراق فى التصوير .

فالواقعية هى التى دفعت الشاعر الجاهلى إلى استلهام بيئته ، وتصويرها كما يراها ، واشتقاق عناصر الخالدة من الطبيعة التى يدركها ويدرك سر جمالها

إذن فقد كان الشاعر ينظم شعره على أسس محددة ، وفى نطاق حدود مرسومة ، وأصول موروثة لا يحيد عنها .

— مراعاة الواقع .. فلا يصف شيئا بصفة شىء آخر .

— مراعاة العادات الواقعية .. التى يعيشها مجتمعه .

— مراعاة اللياقة الذوقية .. فيما يتصل بالعرف الاجتماعى والذوق العام .

— مراعاة اللياقة العقلية .. بعدم الخروج عن المألوف فى النظم والتعبير .

— مراعاة الفصاحة اللغوية بالبعد عن الإغراب والمغالطات اللغوية والمعنوية

— الارتباط بالنمط المستحسن والمستحب والمستمد من التراث ..

... فاذا كان ذلك كذلك ، فليس هناك إذن حاجة ثقافية إلى تفسير ما هو معروف سليقة وطبعا ، وما هو ملموس حسا وعقلا ، فاللغة لغة القوم ، والمعانى من بيئتهم ، متداولة بين أذهانهم ، والشاعر أخوهم ، وابن عشيرتهم ، وعضو مجتمعهم .. والأيام معروفة ، والمآثر محفوظة ، والمفاخر موروثة ، ينظمها الشاعر عقداً يضم حبّاته ، جنباً إلى جنب ليضعه إكليلا حول جيد قبيلته ومجتمعه .

من هنا لم يقصد الشاعر — من خلال نظمه — أن يجهد سامعيه ، أو يخرج عما ألفوه وعرفوه ، وورثوه ودرسوه .. إنما ينطلق الشعر إطلاقا ، قاصداً التعبير المباشر عما يريد توصيله إلى سامعيه ، متوخياً الصدق الفنى والواقعية ، وأقصى مراميه ، ومنتهى بغيته أن تصل أشعاره إلى الناس ، فتنفذ إلى قلوبهم وعقولهم مباشرة ، وبلا واسطة أو وسيط ، فيعرفون مراده ، ويدركون تجربته ، ويفهمون مقصده ، دون ما حاجة إلى تدخل طرف ثالث — بينه وبينهم — إلا أن يكون ناقلا أو راويا أو منشداً .

وأنّى للشاعر أن يغرب وهو الذى يقصد أن يفهمه الناس ، وأن تشاع أشعاره .

أنى له أن يغرب ووسيلته ليست ملكه وحده ، وأداته ليست وقفاً عليه .

أنى له أن يغرب ومعانيه مشاع بينه وبين جمهور عصره ، حصيلة الخبرة

والمران والمعرفة والثقافة التى رضع لبانها ، وهضم دسمها ، فأمدته بالطاقة المعبرة ، وفجرت على لسانه بركان الشاعرية والموهبة .

بل لعل الشاعر كان يعرف أن من واجبه وحفاظا على فنه ألا يُغْرِبْ ، لأنه إذا فعل ذلك كتب على نفسه الجمود وعلى شعره النسيان ، وتخلى عنه جمهوره ، وضاعت أشعاره ، وطمست أخباره ، لأنه لن يجد من يفهم كلامه ، أو يحفظ أشعاره وهذا ما قيل عن الشاعر أمية بن أبى الصلت . رووا أنه حاد عن السنن المألوفة ، وخرج عن القواعد المعروفة ، فأتى فى شعره بأشياء غامضة لا يعرفها العرب(١) ، فكان ذلك سببا فى ضعف شعره وقلة جمهوره ، وسببا فى السخط عليه ، وبالتالى لم يخلد شعره .

ذلك لأن من عيوب الشعر — عندهم — أن يركب الشاعر منه ما ليس بمستعمل إلا فى الفرط ، ولا يتكلم به إلا شاذا ، وذلك هو الوحشى الذى مدح عمر بن الخطاب زهيرا بمجانبته وتنكبه إياه .

قال : « كان لا يتبع حوشى الكلام »(٢) .

لقد وجدنا من فحول الشعراء ، من إذا خاف لبسا أو أحس غموضا

---

(١) يقول الأصفهانى : « كان أمية بن أبى الصلت قد قرأ كتاب الله عز وجل الأول فكان يأتى فى شعره بأشياء لا تعرفها العرب : فمنها :

قمرٌ وساهورٌ يُسَلّ ويُغْمَدُ

وكان يسمى الله عز وجل فى شعره السلطيط فقال :

والسَّلْطيط فوق الأرض مُقْتَدِرٌ

وسماه فى موضع آخر التغرور ، فقال : وأيده التغرور .

يقول ابن قتيبة : وعلماؤنا لا يحتجون بشىء من شعره لهذه العلة (أنظر الأغانى ٤-١٢١ ، ط دار الكتب) والساهور : غلاف القمر يدخل فيه إذا كسف . والسلطيط : قال ابن جنى هو القاهر من السلاطة . قال ويروى : السلطيط وقال صاحب التهذيب : سليط جاء فى شعر أمية بمعنى المسلط ، ولا أدرى حقيقته وعبارة ابن قتيبة فى الشعر والشعراء « وأبدت الثغرورا » يريد الثغر . وهذه أشياء منكرة ، وعلماؤنا لا يرون شعره حجة فى اللغة .

(٢) نقد الشعر ، ص ٦٥ ، وأنظر الموشح ، ص ٣٥٤ .

فى معنى من معانيه ، أو فكرة من أفكاره ، حاول أن يجلوها ويفسرها بين ثنايا القصيدة نفسها ، بتحليل دقائقها وتوضيح غامضها .

فزهير حين شبه امرأة فى شعره بثلاثة أوصاف فى بيت واحد فقال(١) :

تَنَازَعَتْ المَهَا شبهاً ودُرَّ البـ ـحُورِ وشَاكَهَتْ فِيهَا الظِّبَاءُ(٢)

أحس أنه أجمل ، وتركيب الصورة منه بهذه التشبيهات المتعددة ، فخاف لبسها على أذهان جمهوره ، فعاد ليجلى ما أجمله من المعنى ، وما قصد إليه ، ففسر ذلك بقوله :

فأمَّا مَا فُوَيْقَ العِقْدِ منهـا فمِن أَدْمَاءَ مَرْتَعُهَا الخَلاءُ

وأمَّا المُقْلَتَانِ فمن مَهَاةٍ وللدُّرِ الملاحَةُ والصَّفَاءُ

إن أقصى ما كان يطمح إليه الشاعر الجاهلى فى عملية الخلق والإبداع ، هو أن يركز جهده وذهنه فى عملية الإخراج الفنى ، فى رسم الصورة الشعرية ، فى تصوير المشاهد ، فى توصيل رؤاه وتجربته إلى الناس.. فى ربط الأحداث ، وكل ذلك فى نطاق الواقع ومن محسوسات بيئته الصحراوية ، وبوسيلته الفنية التى يطوعها لخدمة أغراضه .. فاذا استخدم ألفاظا فهى من معجم ألفاظ القبيلة والعشيرة .

وإذا اخترع معنى .. فذاك من واقع البيئة المحيطة بالقبيلة والعشيرة .

وإذا رسم صورة .. فألوانها مستمدة من صندوق ألوان القبيلة والعشيرة .

ومن هنا كان الشاعر — فى بيئته — مفهوم القول ، معقول المعنى ، لا تغرب من شعره غاربة ، ولا تخفى على أذهان الناس منه خافية ، لأن الجميع تربطهم وحدة البيئة والثقافة والحكم .

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ١٣٩ — ١٤٠ .

(٢) الديوان ، ص ٦١ — ٦٢ (طبع دار الكتب) .

شاكهت : شاكلت وشابهت . أدماء : ظبية بيضاء .

قال ثعلب فى تفسير البيت : أراد فيها شبه من البقر فى العيون ، ومن الدر فى الصفاء ، ومن الظباء بطول العنق » .

بيد أن الوحدة البيئية والثقافية ـ فى هذا العصر الجاهلى ـ لم تمنع القلة القليلة من الاستفسار والاستفهام ، وإن يكن ذلك فى نطاق السؤال التقليدى : من قائل هذا البيت ؟ أو من الذى يقول كذا ؟ أو ماذا تعنى بقولك كذا ؟(١) .

وهذا يدل صراحة ، على مدى الاهتمام « بالمادة الفنية » قبل الاهتمام بخالقها ومبدعها ، فهم يحفظون الشعر وإن لم يعرفوا قائليه ، وهم يهتمون بالمعانى والمضامين ، قبل الاهتمام بمعرفة أصحابها ومخترعيها .. وهذا مبدأ هام ، وأصل خطير كان له أثره فى الرواية الأدبية ، فالقوم يهمهم أولا وقبل كل شىء الأشعار ، ولن يفيدهم كثيراً معرفة ناظمها وقائلها ، خاصة إذا كان الشاعر ذائبا فى قبيلته .

ومن هنا وجدنا اختلاف الرواة فى نسبة الشعر إلى أصحابه ، ووجدنا أن البيت الواحد قد ينسب لأكثر من شاعر .

وأغلب الظن أن هذا كان سبباً هاما من أسباب النحل ، وكثرة نسبة الشعر إلى المشهورين دون المغمورين ، وأدى ذلك بالتالى إلى نشأة مبدأ توثيق الشعر ، وتصحيح نسبته فى العصور التالية .. وكان هذا العمل عنصراً من عناصر شرح الشعر بعد ذلك .

فاذا ما عدنا إلى الحاجة الثقافية التى دعت إلى شرح الشعر فى هذا العصر ، وجدنا أن الأمر لا يتعدى ما سبق أن ذكرناه ، يضاف إليه بعض الاستفسارات اللفظية التى كانت تظهر بين الحين والحين حول اختلاف اللهجات . وقد كان رواة الشاعر أو رواة القبيلة هم الذين يتولون شرح هذه الجزئيات وتوضيحها وتفسير مضمونها ، هذا إذا لم يكن الشاعر نفسه هو المنشد ، فاذا كان هو المنشد وسئل عن معنى كلمة أو مقصود بيت ، أو مضمون تشبيه ، كان الشاعر هو المفسر الأول لمعانى شعره .

---

(١) سنتناول هذا الموضوع تفصيلا وسنورد الكثير من الأمثلة فى الفصل القادم .. (نشأة الشروح وتطورها) .

إذن ففى العصر الجاهلى لم تكن هناك حاجة مُلحّة لشرح الشعر .. للأسباب التى ذكرناها من قبل — لأن وحدة البيئة والثقافة والمجتمع ، ألّفت بين العقول وأوضحت المفهوم ، « فاللغة على ألسنتهم فطرة وسليقة ، ولا يكاد يشذ عن مداركهم لفظ أو تعبير فى محيط قبائلهم ، فان اختلفت بعض ألفاظ هذه القبيلة عن تلك ، لم يكن لهذا من أثر ، ولم تدفع إلى تعلمه ضرورة ، وكان الشعراء بدورهم يتخيرون من الألفاظ ما تُمْحى معه هذه الاختلافات(١)

٢ — فى عصر صدر الإسلام :

جاء الإسلام بعقيدة أساسها التوحيد ، وشعارها الأخوة ومثلها الرحمة فنقض كل معتقدات الجاهلية ، وحطم أصنامها ، وكان دعوة أشعلت ثورة قلبت المفاهيم السائدة وغيرت العادات الرديئة ، وأحل محلها عقيدة وسلوكا وشرائع ومبادىء ومثلا عليا دينية وأخلاقية وإنسانية .

فى ظل الإسلام ، التقى التراث الجاهلى التليد بالإسلامى الجديد وامتزجا معا ، وكان لهذا الامتزاج أثر ملموس فى الحياة الأدبية والثقافية عامة ، وفى الشعر خاصة ، ظهر ذلك واضحاً فى اللفظ والمعنى والشكل والمضمون وفى أغراض الشعر وموضوعاته .

لقد عرفنا — فيما مر بنا — ان الشعر الجاهلى كان يستمد تقاليده ومثله وعواطفه وقيمه من الحياة الجاهلية .. فلما جاء الإسلام ، أبطل دواعى ونزعات هذه الحياة ووضع أسساً وقيما روحية جديدة تخدم العقيدة فكان على الشعر أن يتأثر بذلك ، ويحول اتجاهه ليستمد معانيه وأغراضه من هذه القيم والأسس التى تتناسب وطبيعة الدين الجديد .

وقف الإسلام من الشعر مواقف متباينة ، تنسجم فى جملتها وطبيعة وظروف المراحل التى شهدتها الدعوة. فنجد أن القرآن قد ذم الشعر والشعراء وسفه أفكارهم وهوّن أقدارهم ووصفهم بالكذب والمبالغة ، فى الفترة الأولى

---

(١) رواية اللغة ، الدكتور عبد الحميد الشلقانى ، ص ٥٨ (طبع دار المعارف ١٩٧١) .

فترة البدء بنشر الدعوة ، خاصة حين وقف الشعراء الكافرون يهاجمون الدين وينتقصون من دعوته وقيمه ومثله ويرمون الرسول بأنه شاعر ، وأن قوله هو الشعر .

فى هذه الفترة ، نظر الدين إلى الشعر على أنه سلاح مضلل من أساحة الشرك ، يجب مقاومته وإخراس صوته ، حتى لا يفل عضد الدعوة ويشتت أفكار الداخلين فى الإسلام أو يزعزع ثقتهم فى دينهم الذى ارتضى لهم ، فأنزل الله تعالى قوله : «والشعراءُ يتّبعُهُمُ الغاوون..» ليصرف الناس عنهم وعن أشعارهم ، ليستمعوا إلى كلام الله ، وتعاليم الله ..

ثم كانت عبقريته — صلى الله عليه وسلم — حين دخل فى الإسلام شعراء نابهون ، مشهود لهم بالمقدرة الفنية والفحولة ، ففطن إلى محاربة المشركين بسلاحهم وبلسانهم فى عقر دارهم ، فكان أن وجه الشعر وطوّعه وأعطى الفرصة للشعراء المسلمين أن يقاتلوا به أعداء الله وأعداءهم ، وألهب نخوة الشهامة والبطولة فى قرائحهم حين نادى — صلى الله عليه وسلم — « من يحمى أعراض المسلمين ؟ » . فقال كعب بن مالك : أنا يا رسول الله ، وقال عبد الله بن رواحه : أنا يا رسول الله ، وقال حسان بن ثابت : أنا يا رسول الله.

ولقد كان يدرك بذهنيته اللماحة وعقليته الفذة ، أنهم أكفاء لهذا العمل إلا أن حسانا ألسعهم لسانا ، وأوجعهم هجاء .. فقال صلى الله عليه وسلم لحسان : أهجهم أنت فإنه سيعينك عليهم روح القدس(١) ، ثم حين اشتد هجاء الكفار ، وآلمه صنيعهم وكثرتهم .. دفع بحسان إلى أبى بكر ليزوده بأفتك الأسلحة ويدله على الطريق إلى مطاعنهم ليكون على بينة تاريخية بمثالبهم(٢) ، بيد أن كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة لم يتقاعسا أو

---

(١) الأغانى ٤ ـ ١٤ (طبع دار الكتب) .

(٢) جاء فى الأغانى (٤ ـ ١٣٨) أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لحسان : اذهب إلى أبى بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم أهجهم وجبريل معك وقال فى رواية أخرى : يا حسان فأت أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك .

يتقاعدا بل على العكس لقد ظاهرا حسانا ، واندفعا فى أثره وأخذوا جميعا يصدون سهام المشركين ويحولون كثيراً منها إلى صدور الكافرين ونحورهم فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم : بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب وكان عبد الله بن رواحة يُعَيِّرُهُم بالكفر (١) .

وهكذا وقف ثلاثتهم فى ساحة الجهاد يذودون عن رسول الله وعن دعوته ، ويحمون كما طلب إليهم الرسول أعراض المسلمين . ولقد حمد الرسول لهؤلاء الشعراء ، المقاتلين بالكلمة ، حسن بلائهم وعظيم صنيعهم ، وأثنى على بسالتهم ومقدرتهم الفنية على الردع ..

فقال : « أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب ابن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى » (٢) ، وما هذا الحمد وذاك الثناء على هؤلاء الشعراء ، إلا اعترافا صريحاً بقيمة هذا السلاح البتار (الشعر) الذى كان يسلطه المشركون على رقاب المسلمين .

حقا لقد كانت معجزة من معجزات الرسول « التكتيكية » أن يحارب القوم بسلاحهم وأن يكون عقابهم وجزاؤهم من جنس عملهم ، فلم يكن ليخفى عليه ماكان لهذا الشعر من مكانة(٣) ، ومن أثر فتاك فى نفوس العرب وإحساسهم ، لذلك حرص أن يكون هذا الشعر هادفاً ، يؤزر الحق ويظهره(٤)

---

(١) الأغانى ٤-١٣٧ .

(٢) الأغانى ٤-١٤٣ .

(٣) للرسول — صلى الله عليه وسلم — تعبيرات قيمة تنبىء عن معرفته لمكانة هذا الشعر وأثره فى نفوس العرب من ذلك قوله : « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين » . (العمدة : ١-٣٠) .

وحول الشعر ومكانته فى نفوس العرب أنظر قول أبى هلال العسكرى فى الصناعتين ص ١٠٤ وقول الجاحظ فى الحيوان ، ج ١ ، ٣٦ .

(٤) روى عنه — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه » . وقال : « إنما الشعر كلام فمن الكلام خبيث وطيب » (أنظر : العمدة ١-٢٧) وأنظر رأى الرسول فى الشعر فى دلائل الإعجاز للجرجانى ، ص ١٣ — ٢٠ .

ويتجنب الباطل ويزهقه ، واستغله الاستغلال السليم ، ووجهه توجيهاً مباشراً وفى كل اتجاه للدفاع عن القيم الإسلامية والمثل الإنسانية الجديدة .

ثم تأتى مرحلة ثالثة ، بعد فتح مكة ، وقهر قريش ، واستقرار الأمر فى يد النبى وخلفائه ، وكان الشعر قد أنهى مهمته الدفاعية والقتالية وانتهى دوره الذى وجهه له الرسول ، فقريش عدو الأمس قد أصبحت بعضا من المسلمين ، وهنا صار اجترار الشعر الذى تقاذفت به مكة والمدينة زمنا ، خطراً على الإسلام والمسلمين لأنه سيعيد إثارة الضغائن والأحقاد التى عفى عليها الزمن لذلك نهى الرسول عن إنشاد الشعر أو روايته — إلا ما يظهر القيم الخلقية والإنسانية أو يبرز مكرمة من تكلم المكارم العربية أو يتغنى بفضيلة ويستهجن برزيلة .. وكذلك نهى عمر بن الخطاب الناس أن ينشدوا شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركى قريش وقال (١) : فى ذلك شتم الحى بالميت ، وتجديد الضغائن وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء فى الإسلام » .

ومع ذلك فلم يكن عمر يستطيع أن يتخلى عن سلاح الشعر كلية ، خاصة أمام تطور الأحداث وتغير الظروف فلما كان من قدوم عبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب الفهرى ، والحارثى وتحديهم للمسلمين بالشعر ... اضطر عمر لترك حسان بن ثابت ليناقضهم ويفحمهم .. ثم قال لمن حضره : « إنى قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئا دفعا للتضاعن عنكم ، وبث القبيح فيما بينكم ، فأما إذا أبوا فاكتبوه واحتفظوا به(٢)»

---

(١) الأغانى ٤-١٤٠ ؛ وانظر موقفه من الحطيئة وتحريمه الهجاء عليه (الأغانى ٢—١٨٩) .

(٢) قال خلاد بن محمد : فأدركته والله ، وإن الأنصار لتجدده عندها إذا خانت بلاه » .
(الأغانى ٤-١٤٠) .

٣ – الحياة الأدبية فى عصر صدر الإسلام :

أجمع أكثر النقاد والباحثين ، الأقدمين والمحدثين(١) على أن النشاط الأدبى فى عصر صدر الإسلام – خاصة الشعر – جعل يضعف كماً وكيفا . وأرجعوا ذلك لأسباب عدة منها :

١ – أن أعداء الإسلام كانوا يحاربونه بالشعر ، فلما عم الإسلام ، كانت كراهة هذا الشعر قوية فى نفوسهم ، فتناسوه وامتنعوا عن رواية ما كان منه من هذا القبيل .

٢ – ما شغل الناس وغمرهم ، وملك عليهم أمرهم ، من شواغل الفتوح ، ونشر الدين وتثبيت قواعده ، وتحقيق أهدافه ومبادئه ، ليعم الإنسانية جمعاء. ولقد كان قول عمر بن الخطاب وتعقيب ابن سلام مصدر كل من نظر فى ضعف الشعر ، وحاول تعليله وقول عمر فى ذلك مشهورا : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » . وتعقيب ابن سلام : « فجاء الإسلام

---

(١) ينظر فى ذلك ما كتبه كل من الأساتذه :

– طه الحاجرى : فى تاريخ النقد والمذاهب الأدبية ، ص ٤٧ وما بعدها ، طبع الإسكندرية سنة ١٩٥٣ م .

– عبد العزيز الكفراوى : الشعر العربى بين الجمود والتطور ، طبع مكتبة نهضة مصر .

– عبد العزيز الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام ، طبع المطبعة الكاثوليكية ، سنة ١٩٦٢ م .

– محمد مهدى البصير : عصر القرآن ، طبع المعارف ، ببغداد ، سنة ١٩٤٧ م .

– محمد أحمد خلف الله : دراسات فى الأدب الإسلامى . طبع لجنة التأليف والنشر ، سنة ١٩٤٧ م .

– نجيب محمد البهبيتى : تاريخ الشعر العربى ، ص ١١٤ ، طبع دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٥٠ م .

– يحيى الجبورى : الإسلام والشعر ، ص ٤٥ ، وما بعدها ، طبع بغداد ، سنة ١٩٧٠ م .

فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته(١) .

٣ — شغف العرب بجمال القرآن وروعة بيانه . يقول ابن خلدون : « ثم انصرف العرب عن ذلك (أى عن الشعر) أول الإسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحى ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فأخرسوا عن ذلك ، وسكتوا عن الخوض فى النَّظْم والنثر زمانا ، ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحى فى تحريم الشعر وخطره ، وسمعه النبى — صلى الله عليه وسلم — وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه »(٢) .

٤ — عدم تشجيع الدين للشعر ، دفع الشعراء إلى الانزواء ، والتحرج من النظم وبخاصة أولئك الذين ملأ الإيمان قلوبهم ، فهم خشوا أن يكونوا من أولئك الشعراء الذين عناهم القرآن فى قوله : «والشعراء يتَّبِعهم الغَاوُون ، ألَمْ تَرَ أنَّهم فِي كلِّ وادٍ يهِيمُون ، وأنهم يقولُون مَا لاَ يَفْعلُونَ »(٣) ، وهذا ما جعل شاعرا مثل لبيد يترك الشعر ، ويلوذ بالصمت ، فحياته فى العهد الإسلامى — على طولها — قد خلت من الشعر إلا من بيت واحد أو أبيات قليلة ، وأن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — حين طلب إليه أن ينشده بعض شعره ، قرأ سورة البقرة . وقال : « ما كنت لأقول شعراً بعد أن علمنى الله سورة البقرة وآل عمران .. »(٤) :

٥ — ضعف الملكة الشعرية عند الشعراء — فى الإسلام — لحدة الأمر عليهم ، وعدم تفهمهم وتعمقهم فى الدين ، فالناحية الروحية والمعنوية من

---

(١) طبقات فحول الشعراء ، ص ٢٢ . وللدكتور ناصر الدين الأسد نقد لهذا الرأى ومحاولة لإثبات عكسه ، أنظر مصادر الشعر الجاهلى (فصل الرواية الأدبية) .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٨١ (طبع مصر ، مصطفى محمد) .

(٣) سورة الشعراء : الآيات ٢٢٤ — ٢٢٦ .

(٤) الشعر والشعراء : لابن قتيبة ، ص ٢٧٦ .

الإسلام لم تزل إذ ذاك فى مستهلها ، ولم تكن قد نفذت بعد إلى قلوب المسلمين فى شكل قوى ملهم يفجر ينابيع الفن الرفيع (١) . وفى ذلك يقول الأصمعى : « الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل فى الخير ضعف ، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره »(٢) . ويقول فى موضع آخر : « طريق الشعر إذا أدخلته فى باب الخير لان ، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان فحلا فى الجاهلية والإسلام ، فلما دخل شعره فى باب الخير فى مراثى النبى — صلى الله عليه وسلم — وحمزة وجعفر — رضوان الله عليهما — وغيرهم لان شعره ، وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرىء القيس ، وزهير ، والنابغة ، من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء ، وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار فإذا أدخلته فى باب الخير لان .. »(٣) . فقوام الشعر — فى رأى الأصمعى — هو تلك الجاهلية التى نشأ فيها ورسخت جذوره فى أعماقها ، وعاش على وصف صورها ، والتعبير عن مثلها . فحين أبعدت المثل الجديدة — التى جاء بها الإسلام — حسان بن ثابت عن هذا الطريق المعبد ضعف شعره ولان .

٦ — إن الإسلام قد حرم أكثر الأمور التى يجود فيها الشعر ، وتنشط لأجلها القرائح ، كشرب الخمر ، والتغزل فى النساء ، والفخر الكاذب ، والهجاء المقذع (٤) ، ثم أن التشجيع الذى كان يلقاه الشعراء فى الجاهلية من الملوك والأمراء والكبراء ، قد حل محله حزم وتوجيه وتهذيب .

---

(١) دراسات فى الأدب الإسلامى — الأستاذ محمد أحمد خلف الله ، ص ٤٧ .

(٢) الشعر والشعراء ، ص ٣٠٥ .

(٣) الموشح ، ص ٦٢ ، ٦٥ . وأنظر أمالى المرتضى ، ج ١ ، ص ١٩٥ . وقال الأصمعى أيضاً : « شعر حسان فى الجاهلية من أجود الشعر ، فقطع متنه فى الإسلام لحال النبى صلى الله عليه وسلم » .

(٤) فى تاريخ النقد للدكتور طه الحاجرى ، ص ٥٠ .

٧ – ويضيف الدكتور نجيب البهبيتى عاملا هاماً ، كان سببا فى إضعاف روح الشعر .. ذلك أن الشعر كان قد أخذ فى العهد السابق للإسلام مباشرة يتجه إلى نحو من التفكير جار حول العقائد والدين ، والشعر إنما يذهب هذا المذهب فى طور شيخوخته ، فأرخصه ذلك ، وحطه عن مستواه القديم من ناحية ، وأوقفه موقف المخالفة فى الإسلام من ناحية أخرى ، وبذلك ذهب مع عصر التقلقل ملوك الشعر ، الذين كانوا أثراً من آثار عهد النضج الفنى وخلاصة عظمى لأزهر مقاييسه (١) .

تلك هى أهم الأسباب التى سجلها العالمون بالشعر ، عن أسباب خفوت الشعر فى صدر الإسلام . ولا شك أن بعضها صحيح .. نظراً لانقراض الدواعى القديمة ، وانفراط مقومات الحياة الأدبية التى رأيناها فى العصر الجاهلى ، التى تحبب قول الشعر وتحرك القرائح ، وتعينها على الخلق والإبداع والتجلى ولكن أكثرها يحمل روح التجنى على الإسلام .

إن الإسلام وإن يكن قد عاق ضروباً من الشعر تخالف مبادئه ودعوته ، إلا أنه لم يقف حجر عثرة فى طريق الشعراء .. وقد رأينا منذ قليل أن الدين قد شجع الشعر ، واتخذ منه سلاحا مساعداً من أسلحة الجهاد ، شهره بوجه خصومه الكافرين يحمى به أعراض المسلمين ، وأتاح للشعراء أغراضا جديدة لم تكن موجودة لديهم ، كما فتح مجالات لم تكن عند القدماء أهمها النقائض بين المسلمين والمشركين ، حيث ارتبطت هذه المناقضات الحربية ، بفنون أخرى مثل فن الرثاء الذى تثيره الحرب بما يسقط فى أتونها من صرعى ، ثم فن الحماسة الذى ينظمه كل من المنتصرين والخاسرين ، حيث يعدون العدة دائما لجولة جديدة ، يكون الشعر ممهدا لها ومثيرا لنارها ، وباكياً قتلاها ، ومخلدا أحداثها ، ومعلنا مفاخر فرسانها من الأحياء والأموات(٢) .

---

(١) تاريخ الشعر ، ص ١١٤ .

(٢) الإسلام والشعر : يحيى الجبورى ، ص ١١ .

إن الذى لا شك فيه — أن الإسلام لم يكن ليهمل عنصر الزمن أو التطور فى نظرته إلى الشعر ، بل اتخذ موقفه فى ذلك وفقاً لما تقتضيه مصلحة الدين والمسلمين . بيد أن هناك عاملا حاسما ، لم يتناوله أحد من الذين تعرضوا لموقف الإسلام وأثره فى الشعر . هذا العامل كان له أثره وقوته وفاعليته ، ذلك أن الحياة الأدبية فى عصر صدر الإسلام ، فقدت العنصر الهام والحساس الموجه لها ، والمحرك لتيارها ، وهو الجمهور الأدبى المتذوق ، الذى كان عماد الحياة البدوية ، والذى ظل مسيطراً مدة طويلة على نتاج الجاهلين ، ذلك أن جمهور الشعر فى الإسلام ، وإن كان هو هو جمهور الشعر القديم ، إلا أنه قد تبدلت نظرته ، وتغيرت حاسته ، وتزحزحت مكانة الشعر فى نفسه ، وأفسحت المجال للقرآن الكريم .. حتى لقد وجدنا من كان يخرُّ ساجداً حين تتلى عليه آيات بينات ، تخاطب وجدانه بأرقى ما يمكن أن يخاطب به مثله . فكان من الطبيعى أن يفقد الشعر — فى صدر الإسلام — عنصر التجاوب ، والمشاركة الوجدانية ، وهو عنصر لا بد منه للشاعر ليستطيع أن يمضى فى التعبير عن ذاته .

ومع ذلك ، وبالرغم من كل الظروف ، فما كان لهذه الحياة الأدبية إلا أن تبقى على نحو ما ، وهى وإن كانت قد تكاسلت فترة ، وقل النظم والإبداع ، فقد نشطت بجانبها حياة أخرى دينية عمادها كتاب الله الكريم ، حيث عكف الصحابة وكتاب الوحى على جمعه وتلاوته ، ثم دراسته وتفسيره لإبراز المثل والتعاليم التى أتت بها العقيدة السمحاء ، وتابعهم بقية القوم ممن أسلموا وأنار الله بصائرهم وأبصارهم بنور الهداية ، لا سيما بعد أن أصبح حافظ القرآن وقارئه أعلى مكانة من ناظم الشعر ومنشده .

وكان من البديهى أن يتفاوت الناس — فى الفترة الأولى من الإسلام — فى فهم معانى القرآن ، ومدلولات ألفاظه ، نتيجة لاختلاف ظروف حياتهم العقلية ، وكان من الطبيعى أن يتساءلوا عن تفسيره وعما ورد به من أحكام وشرائع ، وعقائد ومثل ، وقيم وقصص .. لأن القرآن — وإن كان بلسانهم

وصيغة كلامهم الذى نشئوا عليه ، وجبلوا على النطق به ، إلا أنه لم يكن بمقدور عقولهم أن تحيط به فى ذلك الوقت ، فكان العرب يفهمون منه ما يفهمون ويستوعبون ما يستوعبون ، مسترشدين بما فى لغتهم من أساليب الأداء ، وأحكام التعبير ، وما تسعفهم به أفكارهم ، وفى هذه الحقبة : « بيّن النبى — صلى الله عليه وسلم — للمخاطبين من أصحابه — رضى الله عنهم — ما عسى الحاجة إليه من معرفة بيان لمجمل الكتاب وغامضه ، ومتشابهه ، وجميع وجوهه التى لا غنى بهم وبالأمة عنه ، فاستغنوا بذلك عما نحن إليه محتاجون ، من معرفة لغات العرب واختلافها والتبحر فيها ، والاجتهاد فى تعلم العربية الصحيحة التى بها نزل الكتاب وورَدَ البيان »(١) . كما كان الرسول الكريم يوضح ما أبهم على القوم ، ويفسر ما عجزوا عن إدراك كنهه ، ويشرح لهم ما غمض من معانى الآيات ، امتثالا لقول ربه : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(٢) .

ثم قام بهذا التفسير بعده — صلى الله عليه وسلم — الصحابة الكرام ، واشتهر منهم على بن أبى طالب ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبىّ بن كعب(٣) وكان بعضهم يفسر القرآن بما أثر عن رسول الله ، لذلك سمى هذا التفسير : « التفسير بالمأثور » . وبجانب هذا التفسير اهتم الصحابة بـ « التفسير اللغوى » فالتمسوه فى شعر العرب ، وينسب هذا التفسير إلى عمر بن الخطاب(٤) ، الذى كان أول من استنّه . فقد جاء فى الموافقات أنه سأل عن معنى قوله تعالى:

---

(١) تهذيب اللغة للأزهرى ١-٤ ؛ وانظر مقدمة مجاز القرآن لأبى عبيدة ١-٨ ، تحقيق الدكتور محمد فؤاد سزكين .

(٢) سورة النحل ، آية ٤٤ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١-٥٣ ؛ وانظر فى ذلك : ضحى الإسلام ٢-١٣٧ وما بعدها ؛ وانظر أيضاً أمثلة من تفاسير هؤلاء الصحابة فى الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢-١٨٧ . وانظر فجر الإسلام ، ص ٢٠٢ .

(٤) أنظر امثلة لتفسيره فى الموافقات للشاطبى ٢-١٨ وما بعدها .

« أَوَ يأخُذُهم عَلَىٰ تَخَوُّف » (١) فقام شيخ من هذيل ليقول إن هذه لغته : وأن معنى التخوف التنقص ، فسأله عمر عن شاهد من أقوال العرب ينبي عن ذلك ، فأنشد الهذلي قول القائل :

تَخَوَّفَ الرحلُ منها تامِكاً قَرِداً
كما تَخَوَّفَ عُودَ النَّبعةِ السَّفَنُ

فاستراح عمر لما سمع ، وقال لأصحابه : عليكم بديوانكم لا تضلوا ، قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم » (٢) .

ولقد كان الفاروق من البهارة بحيث يكون رأيه موضع التنفيذ ، إذ وجد الصريح من الدليل ، والدليل هنا أوضح من أن يشار إليه ، لأن القرآن عربى ، نزل بلسان عربى ، وقد قال الله عز وجل : « إنا جعلناه قُرآناً عربياً » . فالرجوع فى تفسيره إلى لغة العرب رجوع إلى المصدر الحقيقى دون نزاع (٣) . بيد أن هذه الطريقة — التفسير اللغوى — وجدت خصوما كثيرين ، رأوا أن الرجوع إلى الشعر فى تفسير القرآن يجعل الشعر أصلا لكلام الله .. من هؤلاء الإمام النيسابورى ، حيث صرح فى مقدمته(٤) : « بأنه لا يجوز ان يحتج بالشعر على القرآن ، أَوَ هو مذموم فى القرآن والحديث معاً ؟ .. » . ولعمرى كيف فات الإمام النيسابورى ومن شايعه — على حصافة عقولهم — أن الاستشهاد بشعر العرب فى تفسير الألفاظ القرآنية يجعل الشعر أصلا للقرآن ، لأنه يقف

---

(١) سورة النحل ، آية ٤٧ .

(٢) الموافقات ٢ ١٨ . وتفسير البيضاوى : سورة النحل آية ٤٧ .
التامك : السنام . القرد : الكثير القردان أو السمين .
السفن : حجر ينحت به) .

(٣) خطوات التفسير البيانى : للدكتور محمد رجب البيومى ، ص ١٥ (طبع مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٧١) .

(٤) التفسير والمفسرون للذهبى ، ترجمة ابن عباس ، وانظر أيضاً : الإتقان فى علوم القرآن ١٢١.١ .

عند تفسير اللفظ وحده ، أما المعانى المأخوذة من تراكيب الألفاظ ، فنصوص سماوية ، لا يقف أمامها الشعر فى شئ ، وكم من نصوص القرآن ما يخالف شعر العرب فى إتجاهه الفكرى دون أن يمكن ذلك للشعر ،أن يعارض بالقرآن ، فضلا عن أن يرجع إليه ، بل ماجاء القرآن فى لبابه إلا ليعفى على كثير مما خاض فيه الشعر الجاهلى .. والقضية من الوضوح بحيث لا تحتمل الجدال »(١) .

ثم اقتفى ابن عباس أثر عمر بن الخطاب فى ذلك التفسير اللغوى ، وأكثر من ذلك استناداً إلى اطلاعه الواسع على لغة العرب وأشعارهم ، حتى ليعد ابن عباس مبدعا للطريقة اللغوية فى تفسير القرآن الكريم(٢) . فقد كانت له مجالس بفناء الكعبة يكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن ، وكان يخصص يوما من أيام الأسبوع يتدارس الشعر ويعلق على فرائده ، وكان محفوظه الشعرى كبيرا مما كان يسعفه كل الإسعاف حين يتصدر للتفسير ، ومناقشته لنافع بن الأزرق(٣) تنطق بالدلالة على سعة محفوظه وجودة تطبيقه . وهو لم يكتف فى الاستشهاد بأشعار الجاهليين — كما حث عمر — بل تعداه إلى شعر المخضرمين ، ورجال الصدر الأول من الإسلام ، لأنهم — فى رأيه — فصحاء ينتمون إلى عراقة الجاهلية بأصالتهم الصريحة ، وبذلك وسع الدائرة حيث وجد أن الاقتصار على الشعر الجاهلى مما يضيق واسعاً يجب أن يمتد(٤) .

---

(١) خطوات التفسير البيانى ، ص ١٦ .

(٢) التفسير والمفسرون للذهبى ج ١ ، ص ٧٥ .

ولابن عباس نصوص صريحة نقلها صاحب الإتقان عن أبى بكر الأنبارى منها : « الشعر ديوان العرب ، فإذا أخفى علينا الحرف من القرآن ، الذى أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك فيه .. » ومنها : « إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ديوان العرب » . (أنظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١-١٢١ ، طبعة حجازى)

(٣) أنظر هذه المناقشة فى الإتقان ١-١٢١ ، وانظر تعليق الدكتور محمد رجب البيومى عليها ورأيه فيها فى كتابه (البيان القرآنى ، ص ١٢٠) .

(٤) خطوات التفسير البيانى ، ص ١٦ .

وإذا كان ذلك كذلك ، فهل وجدت حاجة ثقافية تدعو إلى شرح الشعر الجاهلى فى هذا العصر ، وإذا كانت هناك حاجة .. فما هى أبعادها .. ؟ وما هى أهدافها ؟

إذا نظرنا إلى مقومات الحياة الأدبية فى عصر صدر الإسلام ، الشعر والشاعر والجمهور الأدبى ، وجدنا أن هذه المقومات لم تختلف كثيراً عنها فى العصر الجاهلى .

فالشعر كان امتداداً لشعر الجاهلية ، له نفس السمات والخصائص ، وسار على نفس المنهج والأسلوب القديمين ، وإن كان قد ارتدى بعض أردية جديدة أهداه إياها الإسلام . أما الشعراء — فقد عاش بعضهم دهراً فى العصر الجاهلى ، وفترة فى الإسلام فلم يستطيعوا — فى ظل الإسلام — أن يهجروا ما درجوا عليه فى الماضى من نظم ، فقد كان شعرهم جاهليا فى لباس الإسلام ، مع تغيير بسيط دعّم إليه العقيدة الجديدة .

« ومن المحقق أن الشعراء الذين نبتوا فى الجاهلية ، وعاشوا فى صدر الإسلام لم يختلفوا فى صناعة شعرهم عن آبائهم الجاهليين فى شىء ، فقد ظلوا ينظمون شعرهم على الصورة الجاهلية ، ولم يؤثر الإسلام فيهم تأثيراً واسعاً . على نحو ما هو معروف عن الحطيئة وأضرابه ، وحتى حسان بن ثابت لا نجد فى نسيج شعره من أثر الإسلام خيوطا كثيرة ، ولذلك لم يخطىء ابن سلام حين قرن فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » هؤلاء المخضرمين الذين عاشوا فى الجاهلية والإسلام إلى الجاهليين(١) » .

فإذا انتقلنا إلى الجمهور الأدبى — فى عصر صدر الإسلام — وجدناه هو هو الجمهور القديم ، وإن كان الإسلام قد مس الكثير من القيم القديمة التى كان يؤمن بها ويقدرها ، إلا أن المثل العليا كالإباء والشمم ، والوفاء والكرم إلى آخر هذه المثل ، ظلت ثابتة ، بل لقد عمقت معانيها ، وأضيفت إليها قيم أخرى جاء بها الإسلام بتعاليمه السمحة ، فلم يكن هناك غموض أو إبهام ،

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، ص ٣٢ .

ولم تختلف حاجة هذا الجمهور — فى هذا العصر — عن العصر الجاهلى ، لأنه جمهور عربى اللسان والتفكير ، فقد استغنى أيضا عن المساءلة أو تفسير الشعر لذاته . لكن حاجته الملحة التى سيطرت عليه واجتذبت اهتمامه هى تفسير القرآن ، وكانت إحدى وسائله لهذا التفسير هو الشعر الجاهلى نفسه .. فالحاجة الثقافية حين تطلبت شرح الشعر ، كانت ترتبط بحاجة أخرى أجل وأسمى ، وغاية مثلى وهى تفسير القرآن ، وتحت هذا البند ، وقف الشعر الجاهلى مرة ثانية خادماً أميناً للدين ومعبّراً متيناً للوصول إلى فهم معانى القرآن الكريم .

فالحاجة الثقافية لشرح الشعر — للجمهور الأدبى المتدين — لم تكن لفهم الشعر فى ذاته بل من أجل غرض أسمى وهدف أكبر هو فهم القرآن . لذلك لم يكن شرح الشعر لغاية فنية مزاجية حسية — كما فى العصر الجاهلى — بل لغاية روحية دينية تطلبها الإسلام .

٤ — فى موكب الفتح :

عاشت اللغة العربية — بلهجاتها المتعددة(١) — فى بيئتها « الجزيرة العربية» عاشت فى قلوب أصحابها وعلى ألسنتهم ، تعبر عن حاجاتهم وما تجود به قرائحهم ، أو يجرى فى مخيلاتهم من صور المعانى ، فما كانوا يستشعرون نقصا فى لغتهم وهى الغنية ، وما كانوا يحسون خوفاً عليها وهم حماتها وصونة أصولها وقواعدها ، وحفظة آثارها وتراثها ، بل كانوا يطلقون فيها أعنة الشعر فخراً

---

(١) ينظر فى اللهجات العربية القديمة الكتب والمقالات الآتية :
— لهجات العرب للمرحوم أحمد تيمور (باشا) ، طبع هيئة الكتاب ، سنة ١٩٧٣ م .
— العصر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ، ص ١١١ ، طبع دار المعارف ، سنة ١٩٦٠ م .
— تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد على ، الجزء السابع .
— مقالة ليتمان فى العدد الثانى من الجزء العاشر من مجلة كلية الآداب .
— ومقالته « لهجات عربية شمالية قبل الإسلام » ، الجزء الثالث من مجلة مجمع اللغة العربية .

ونسيبا ، مدحا وهجاء .. يصبون معانيهم المحسوسة أو المعقولة فى قوالبها ، ففى أشعارهم ومحاوراتهم ما يدل على جودة تصرفهم فى المعانى ، وحسن سبكهم للألفاظ ، وأنهم كانوا يرسلون الفكر إرسالا ، ويطلقون الخيال إطلاقا ، ويصوغون ما شاءوا من النظم ، واجدين فى لغتهم وأساليبها الشعرية ثروة ضخمة لا تنفد ، تغنيهم وترضيهم ، تسعدهم وتطربهم .. ثروة تنميها قرائح العرب الخلص ، بما تخترعه وتستحدثه من ألفاظ ، وما تتواضع عليه من معان ، بعد أن ارتقت لغتهم رقيا كبيراً ، وتطورت لهجاتها ، واستطاعت اللهجة القرشية(١) أن تهيىء لنفسها كل عوامل الزعامة والسيادة ، فتكون اللهجة الأدبية الراقية . « فما بين أيدينا من شعر جاهلى يدل دلالة قاطعة على ذلك ، حيث اصطلحت القبائل العربية الشمالية فيما بينهم على لهجة أدبية فصحى ، كان الشعراء على اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم ، فالشاعر حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته المحلية إلى هذه اللهجة الأدبية العامة ، ومن ثم اختفت جملة الخصائص التى تميزت بها كل قبيلة فى لهجتها ، فلم تتضح فى شعر شعرائهم إلا قليلا جدا .. »(٢) .

فى هذه البيئة العربية كانت الفصاحة إرثا متجددا ، يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولم يكن هناك ما يهدد هذه اللغة أو يشوبها ، أو يدعو إلى الخوف

---

(١) أنظر فى لهجة قريش وسيادتها على جميع اللهجات :

– المزهر للسيوطى فى مواضع متفرقة ، كتاب الصاحبى فى فقه اللغة لأحمد بن فارس .

– مقالة ليتمان بمجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد العاشر ، العدد الأول .

– كتاب العصر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ، ص ١٣٣ .

– كتاب فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين ، ص ٦١ و ما بعدها .

(٢) العصر الجاهلى ، للدكتور شوقى ضيف ، ص ١٣١ .

عليها ، على الرغم من صلات المجتمع العربى القديم بالشعوب الأجنبية المجاورة(١) والوافدة على الجزيرة العربية من الحواضر الأجنبية المحيطة لأن اللغة تعيش فى بيئتها البدوية ، وتنمو فى رعاية مجتمعها ، يربطها بهذه البيئة وهذا المجتمع وشائج متينة من وحدة الثقافة والمعرفة والتراث والتقاليد . فاللغة لغة القوم بها يتعلقون وينظمون ويتناشدون ، يصبون فى قوالبها أشعارهم ومثلهم العليا ، وقيمهم المتوارثة ، ويجعلون من صدورهم أوعية لها ، ويتواصون بحفظها وتوارثها فى الأعقاب ، إشباعا لرغبة فيهم ، وتمجيداً لقبائلهم ، وإحياء لعصبيتهم ، وظلت هذه الآثار الأدبية تحمل ألفاظ العربية وتراكيبها وطريقة القول عند أصحابها ، حتى دعت الدواعى إلى ابتعاثها وانطلاقها ، فخرجت تجاهد فى سبيل الله مع المجاهدين(٢) .

ثم بدأت حركة الفتوح الإسلامية ، وخرجت اللغة العربية من بيئتها البدوية ساعية فى أرض الله ، حاملة كلمته ، ناشرة دعوته ، فكانت هذه الفتوح إيذانا بعهد جديد للعرب ، وبداية لطور جديد فى حياة لغتهم .

لم يكن عتاد العرب الفاتحين سلاحهم فقط ، وإنما حملوا أيضا دستورهم وعقيدتهم ، ولغتهم العربية ، وتراثهم الشعرى بكل قيمه ومثله وذخائره ، لذلك كان غزوهم اسلاميا عربيا ثقافيا ، قبل أن يكون توسعا إقليميا .

انطلقت اللغة العربية فى مواكب الفتح الإسلامى تغزو الآفاق مع الغازين

---

(١) يقول الدكتور حسن عون : « إن فكرة انعزال العرب عن العالم الخارجى وانطوائهم فى شبه جزيرتهم ما هى إلا فكرة سطحية أشبه ما تكون بالأساطير ، ويرى أن العرب اتصلوا بالمصريين واليونانيين والفرس والروم والأحباش والمعينيين والسبئيين والمنود واليهود الذين جاءوا جماعات إلى منطقة يثرب بعد أن غزا بختنصر بيت المقدس ، واستقروا فى هذه المنطقة حتى عهد الرسول » .. (أنظر الفصل الخاص بصلة المجتمع العربى القديم بالشعوب الأجنبية من كتاب « صور ملهمة من واقع المجتمع العربى » ، ص ٢٩ وما بعدها ، طبع دار المعارف بالقاهرة ، سنة ١٩٦٢ م) .

(٢) رواية اللغة ، للدكتور عبد الحميد الشلقانى ، ص ٥٧ .

وتفتح الأمصار مع الفاتحين ، ومضت تشق طريقها وسط مجتمعات الأمصار المفتوحة ، متعقبة انتصارات أصحابها الفاتحين فى معاركهم الضارية التى قوضوا بها صرح أعظم إمبراطوريتين فى التاريخ القديم(١) .

لقد أدت حركة الفتح إلى رفع الروح المعنوية للعرب أنفسهم ، وتوحيد لهجاتهم ، وبث روح من القوة فى لغتهم البدوية ، وكان للسياسة الحكيمة التى وضعها الخليفة عمر بن الخطاب أكبر الأثر فى الحفاظ على اللغة العربية من الاضمحلال والانحلال ، والحفاظ أيضاً على القومية العربية من التلاشى فى جماهير الشعوب المغلوبة التى تفوقهم بكثرة العدد ، « حرم عليهم أن يمتلكوا الضياع فى الأقاليم الجديدة ، أو أن يتخذوها لهم وطنا ومقاما ، كما جعلهم بمعزل عن المدن الكبيرة فى البلدان المفتوحة .. فأسكنهم فى معسكرات من الخيام كانت نواة للمدن العظمى فى العالم الإسلامى ، التى نشأت فى بضع عشرات من السنين كالبصرة والكوفة ، والفسطاط ، وغيرها ، وبينما كانت تقيم هنا مختلف القبائل والعشائر فى جوار قريب ، اكتسبت أيضا لهجاتهم قوة وفتوة ، ونشأت لغة بدوية مشتركة ، وضعت الأساس لعربية القرون المتأخرة الفصحى .. »(٢) .

بيد أنه سرعان ما تخفف هذا الحرص بمرور الزمن ، نتيجة لاستخدام الجماعات غير العربية التى وقعت فى الأسر ، واتخاذ العبيد والخدم والإماء

---

(١) فى أقل من أربعين سنة شملت الفتوح العربية شعوباً تنتمى إلى الأجناس البشرية المشهورة السامى والآرى والحامى ، كما شملت رقعة واسعة من الأراضى لم يتيسر مثلها لأية دولة سابقة ، فقد امتدت من البحر الأسود شمالا إلى أواسط أفريقيا جنوبا ، ومن بلاد السند شرقاً حتى المحيط الأطلسى غربا ، وأصبحت الدولة العربية بعد هذه تسيطر سيطرة تامة على البحر الأحمر ، كما أصبحت تتحكم إلى حد كبير فى البحر الأبيض المتوسط ، وقد كانا أهم بحرين فى العالم القديم من الناحية الاقتصادية والثقافية » .

(صور ملهمة من واقع المجتمع العربى للدكتور حسن عون ، ص ٢٦).

(٢) العربية ، فك ، ص ٨ .

وتدفق المهاجرين الذين يبغون استقراراً معيشيا فى هذه الأمصار بعيداً عن بيئتهم وحياتهم الصحراوية القديمة ، واتساع الدولة اتساعا هائلا . فانتشرت اللغة العربية فى هذه الأمصار — بانتشار العرب فيها — وفرضت وجودها ، واستحوذت على القلوب والعقول .

حقاً .. إن العامل الأساسى فى انتشار اللغة العربية فى الأقطار المفتوحة بهذه السرعة هو أنها لغة الدين ، ولغة العرب المسلمين ، الذين سرت دعوتهم فى المجتمعات الجديدة سريان النور فى الظلام ، فآمن سكان الأقاليم بدعوتهم ، وأقبلوا على اعتناقها فى حماسة وقوة .

بيد أن دخول سكان الأقاليم المفتوحة فى الإسلام ، خلق دوافع كثيرة ، وحفزهم إلى تطلعات جديدة ، فقد وجدوا أنفسهم محتاجين إلى تعلم اللغة العربية ، للتوصل إلى هذا الدين الجديد ، وفهم تعاليمه وأحكامه ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى .. للتفاهم مع هؤلاء العرب المنتصرين ، ومن ناحية ثالثة للتوصل إلى مناصب الدولة العليا فى هذه الإمبراطورية العربية الإسلامية ، المترامية الأطراف . كل هذه العوامل شجعت الشعوب الإجنبية للتقرب من هؤلاء العرب ، والتعامل معهم ، فنشأت بالضرورة لغة للتفاهم والتعامل ، ليست باللغة العربية ، وليست باللغة المحلية ، وإنما هى خليط متمازج من اللغات المختلفة ، لكن ذلك لم يثنهم عن التمسك بلغتهم القومية تماما كما تمسك العرب بلغتهم واعتزوا بها ، فعاشت اللغات المحلية جنبا إلى جنب مع اللغة العربية ، وكان ذلك سببا فى نشأة نوع من الصراع اللغوى على غرار الصراع الاجتماعى(١) الذى دارت رحاه بين العرب والأجناس الأخرى .

ونحن نعرف مقدما نتيجة هذا الصراع ، وأن نهايته كانت رجحان كفة اللغة العربية ، بدليل انتشارها الواسع ، وسيطرتها على جميع نواحى الحياة الأدبية والثقافية والعلمية فى هذه الأقطار لحقبة طويلة من الزمن .. بيد أن اللغة

---

(١) أنظر فى « الحياة الاجتماعية والصراع الاجتماعى : حياة الشعر فى الكوفة » للدكتور يوسف خليف ، ص ١٥٨ وما بعدها ، وفجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ، ص ٦٩ وما بعدها .

العربية وإن كانت قد انتصرت وفرضت سلطانها وسيطرتها على هذه الأقاليم وسكانها الأجانب ، إلا أنها تعرضت أثناء صراعها المرير لبعض العوامل الحتمية ، وتأثرت بهذه اللغات — وهى لغات حضارات عريقة — تحت شعار التبادل الثقافى ، والتأثير والتأثر .

فاللغة العربية لم تخرج من معاركها سالمة تماما ، ولكن ظهرت فيها آثار هذه المعارك منذ نهاية القرن الأول وأوائل القرن الثانى — كما يتضح لنا من دراسة التطور اللغوى فى هذه الفترة ..

ذلك لأن اللغات الوطنية القديمة — كما يقول فلك : « كانت سائدة فى الوديان والسهول فى كل مكان ، اللاتينية الشعبية فى شبه جزيرة أيبريا ، ولهجات البربر فى شمال أفريقيا ، والقبطية فى مصر ، واللهجات الآرامية فى سورية وما بين النهرين ، وحتى فى المدن لم تكن الكلمة العليا للعربية . ففى مدن العراق — حتى الجديدة منها كالبصرة والكوفة — كانت الفارسية سائدة بين الطبقات الدنيا إلى مدى بعيد (١) .

وهذا الذى يقوله فلك .. شىء حقيقى وأمر طبيعى ، وهو لا ينفى حقيقة أن العربية كانت منتصرة على اللغات المحلية الأصلية ، ولكن هذا الانتصار لم يقض على تلك اللغات قضاءاً تاما ، وتفسير ذلك — أن العربية حين اصطدمت بهذه اللغات هزتها هزاً عنيفا ، وخلخلت كيانها ، واستطاعت أن تزحزحها عن مكانها القديم ، ثم أخذت تسرى فى المجتمع ، وتتنقل بين ألسنته ، بوصفها لغة الدين والفاتحين ، فى حين جمدت اللغات المحلية ، وتقوقعت على نفسها ، مقتصرة على النواحى الدينية فى المعابد والكنائس .

وفى الوقت الذى كانت فيه اللغة العربية تمتد وتتسع ، وتفرض وجودها وسيطرتها على ألسنة وأفراد المجتمع ، وأخذ يتنفس بها الموالى أنفسهم ، كانت اللغات الأخرى تنحنى أمامها وتفسح لها الطريق — مقتنعة بما كان لها من ماض قديم — لتتقدم اللغة العربية إلى الميدان بلا منافس قوى ، لتظهر

---

(١) العربية ، ص ٨٢ .

وحدها عملاقة متطورة بعد أن امتصت كل ما وصل إليها من رحيق هذه اللغات المحلية ، وليمكنها بذلك مسايرة الحياة المتحضرة الجديدة التى بدأ يحياها الفاتحون المنتصرون منذ القرن الأول .

ولسنا بصدد دراسة هذا الصراع اللغوى بين العربية وغيرها من اللغات ، فهذا بحث وفّى حقه المستشرق الألمانى « يوهان فك » فى كتابه « العربية : دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب » . ولكن ما نود أن نصل إليه ونوضحه — هو أن الفتح العربى الإسلامى — للأقطار الأجنبية ، ودخول الشعوب المختلفة هيأ لظهور لغة للتفاهم بين العرب وسكان هذه البلاد ، هذه اللغة — بطبيعة الحال — كانت تختلف عن العربية البدوية ، ذلك أنها كانت تستعين بأبسط وسائل التعبير ، فبسطت المحصول الصوتى ، وصوغ القوالب اللغوية ، ونظام تركيب الجملة ، ومحيط المفردات ، وتنازلت عن التصرف الإعرابى ، واستغنت بذلك عن مراعاة أحوال الكلمة وتصريفها ، كما ضحت بالفرق بين الأجناس النحوية ، واكتفت ببعض القواعد القليلة الثابتة فى مواقع الكلام ؛ للتعبير عن علاقات التركيب(١) » . وتلك الأمور هى التى أطلق عليها الفصحاء من العرب « اللحن » . أضف إلى ما سبق — أن التقاء العربية بغيرها من اللغات كانت له نتائج هامة — خاصة فى الكوفة والبصرة — أهم الأمصار العربية التى اصطدمت فيها اللغة العربية باللغات الأجنبية فقد كان سكانها أخلاطا من العرب والموالى فرساً وغير فرس ، حقاً لقد بذل هؤلاء الموالى مجهوداً ضخما فى التعريب واستخدام الفصحى ، ولكنهم كانوا يجدون عناء شديدا فى نظام الإعراب والتصريف اللغوى ، ولعل ذلك ما جعل هاتين المدينتين تبادران إلى وضع القواعد ، حتى لا يضل الموالى فى شعابهما الوعثة ، ولم يكن هذا كل ما عانوه ، فقد كانوا يعانون أيضا من لكنتهم ، وما يضطرون إليه من تكييف عضوى لمخارج الحروف ينجحون فيه أحيانا ،

---

(١) العربية ، ص ٩ .

وأحيانا يفشلون ، فكان من الصعب عليهم مثلا أن ينطقوا بحروف الإطباق التى لا يعرفونها فى لغاتهم أو ينطقوا بالعين أو بالحاء ، وكان ذلك يصيب ألسنتهم بضروب مختلفة من اللثغات (١) . وسرعان ما لقيت العربية على لسان غير العرب تغييرات هددت بالمسخ صورة وقعها وجرسها ، وطبيعة تكوينها وتركيبها فى الصميم .. بحيث كان العربى يدرك من ذلك التبديل ما إذا كان الناطق فارسيا أو نبطيا ، وقبل كل شىء نجد التعارض مع قواعد النحو والتصريف العربى للأسماء والأفعال كثير الذكر فى الأخبار ، دليلا على أن ترك الإعراب كان من أول السمات على الخطأ فى طريقة التعبير(٢) ، وقد أطلق العرب على هذا أيضا : « اللحن » . وهكذا أحدقت باللغة العربية الأخطار من عدة جوانب ، نتيجة للاختلاط الشديد الواسع المدى بين العرب وغيرهم ، فلم يكن من الممكن إقامة حاجز فاصل بين العرب والشعوب المفتوحة . فأخذ ينزلق إلى العربية على ألسنة هذه الشعوب كثير من الألفاظ الدخيلة ، التى حاولوا تعريبها تارة عن الفارسية(٣) ، التى كانت منتشرة فى هذين المصرين ، وتارة عن النبطية التى كان يتحدث بها سكان السواد فى العراق(٤) : بل لقد انتقل هذا التأثير — تأثير الألفاظ النبطية والفارسية إلى العرب أنفسهم — سكان المدينة فى الحجاز(٥) — نتيجة لتأثر الكثيرين من أبناء الحوارى الأجنبيات بأمهاتهم فى النطق ..

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، ص ١١٧ .

(٢) العربية ، ص ١٠ .

(٣) يقول فك : إن البصرة كانت تشيع فيها الألفاظ الفارسية ، يدل على ذلك احتفاظ أسماء بعض أحيائها بالمقطع الفارسى (آن) ، مهلبان وأميتان (نسبة إلى أبى أمية) وجعفران (نسبة إلى أم جعفر) وعبد الرحمانان وخالدان ، وكانت الألفاظ والأساليب الفارسية تشيع فى كلام أهلها .

(العربية ، ص ١٤) .

(٤) أنظر كتاب العربية ، فك ، الفصل الخاص بالعلاقات اللغوية ، ص ٧ — ٨٤ . وأنظر أيضاً : البيان والتبيين للجاحظ ١-٢٠ ومابعدها .

(٥) البيان والتبيين ١-١٨ وما بعدها .

فإذا أضفنا إلى ذلك كله أن عجلة الزمن قد دارت ، وتغيرت الظروف والأحوال ، وأخذ الكثير من العرب ينشئون فى المدن ، وقد انقطعت صلتهم بالبادية عرفنا مكمن الخطر ، ووصلنا إلى ما نريد إبرازه وهو ضعف السلائق العربية .

وقد برز ضعف السلائق العربية أكثر ما ظهر فى الشعر — الفن الذى يتخذ من اللغة أداة للتعبير — ووضح ذلك عند الشعراء الأمويين من أمثال يزيد بن مفرغ(١) — الذى كان يحشو أشعاره بالألفاظ الفارسية ، وزياد الأعجم(٢) ، الذى كان يجد صعوبة فى تكييف مخارج الحروف التى تخالف حروف لغته(٣) وإن عرف بأنه شاعر جزل الشعر فصيح الألفاظ(٤) .

ولم يكن ضعف السلائق العربية بين الشعراء الموالى فقط ، بل لقد انتقلت عدواه إلى الشعراء العرب أنفسهم ، الذين نشأوا فى الحواضر وبعدوا عن البوادى ، من هؤلاء الطِّرِماح (١٠٥هـ) والكميت (١٢٦ هـ) .

فالطرماح كان يكتب ألفاظ النبط الآراميين ويبثها فى شعره(٥) ، كما كان يضمن شعره الألفاظ الغريبة التى يتحصل عليها من البدو الرحل القادمين من البادية(٦) . وهو وإن كان قد وفق تارة ، فقد أخفق تارات ، لذلك رفض علماء اللغة الاحتجاج بشعره(٧) .

---

(١) البيان والتبين ١-١٤٣ .

(٢) كان يبدل العين همزة والحاء هاء ، ويجعل السين شيناً ، والطاء تاءاً ، مما جعل المهلب يهدى إليه غلاما فصيحا يكفيه مئونة إنشاء الشعر .

(٣) أنظر : الأغانى ١٤-٩٩ (سامى) . والبيان والتبيين ١-٧١ ، والكامل للمبرد ، صفحة ٣٦٦ (طبعة رايت) .

(٤) الأغانى ١٤-٩٩ .

(٥) الموشح للمرزبانى ، ص ٢٠٨ .

(٦) الأغانى ، ج ١٢ ، ص ٣٦ ، دار الكتب . والموشح ، ص ٢٠٩ .

(٧) الموشح ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

أما الكميت(١) — فكان يتحصل على الغريب من رؤبة الراجز البدوى ثم يسلكه فى شعره(٢) ، ويقولون إنه كانت له جدتان هرمتان أدركتا الجاهلية كان يعتمد على ما تصفان له من أمر البادية وأحداثها ويسجل هذه الأوصاف فى أشعاره(٣) ومن ثم رفض اللغويون الاستشهاد بأقواله وأشعاره (٤) ، فكلا الشاعرين لم يتغذّ بلبان البادية مباشرة ، بل كان غذاؤهما صناعيا ، فأخطأتها الفطرة اللغوية فى كثير من أشعارهما .

وخلاصة ما مر بنا — أن ضعف السليقة العربية ، وضح وضوحا كبيراً فى عصر الأمويين ، بين الشعراء العرب والموالى على السواء ، الذين عاشوا فى البصرة والكوفة ، وقد أخذت العربية على ألسنتهم تتأثر باللغات الأجنبية ، واتسع هذا التأثر أكثر وأكثر عند الشعراء غير العرب ، بسبب ما كانوا يعانون من اللكنات واللثغات ، وما كانوا يستعيرونه أحيانا من ألفاظ لغاتهم الأصلية ويعرّبونه . أضف إلى ذلك ما كان الشعراء العرب أنفسهم يعربونه ويضيفونه إلى أشعارهم من ألفاظ نبطية أو فارسية أدت إلى ضعف سليقتهم العربية(٥) .

---

(١) أنظر ما كتبه الأستاذ الدكتور يوسف خليف عن الكميت وخصائصه الفنية فى كتابه حياة الشعر فى الكوفة ، ص ٦٨٣ وما بعدها .

(٢) الأغانى : ج ١٢ ، ص ٣٦ (دار الكتب) . والموشح ، ص ١٩٢ .

(٣) أنشد الكميت ذا الرمة بعض أشعاره وسأله الرأى فقال ذو الرمة : « إنك لتقول قولا ما يقدر إنسان أن يقول فيه أصبت ولا أخطأت ، وذلك أنك تصف الشىء فلا تجىء به ولا تقع بعيداً عنه ، بل تقع قريباً » . وقد اعترف له الكميت بأن مرجع ذلك أنه لا يصف شيئاً رآه بعينه ، وإنما يصف شيئاً وصف له . (أنظر الأغانى : ج ١٥ ، ص ١٢٠ ساسى) .

(٤) الموشح : ص ١٩٢ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ . قال الأصمعى هو جرمقانى من أهل الموصل ليس حجة (أمالى القالى ١-٩٧ ، المزهر ٢-٢٣٣ (. وحكى ابن جنى فى الخصائص ١-٢٣١) ما يدل على بطء قريحته فى الشعر .

(٥) ليس معنى ذلك أن كل الشعراء فى هذا العصر ضعفت سلائقهم اللغوية ، فقد كان الطرماح والكميت وأضرابهما فى العصر الأموى شذوذاً بين جرير والفرزدق والأخطل وذى الرمة وأمثالهم ممن ملأوا العراق بأشعارهم ، صادرين فيها عن سليقة عربية سليمة ، وفطرة بدوية صحيحة .

(انظر : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، ص ١٢٠) .

وفى العصر العباسى نلاحظ ما لاحظناه من قبل فى العصر الأموى ، حيث نفذت الكلمات الأجنبية إلى الشعر العربى ، وتغلغلت فيه ، ووضح أيضاً ضعف السليقة العربية ، وتفشت اللكنات الأجنبية ولثغاتها على الألسنة(١) بل أننا لا نتجاوز الحقيقة حين نقول أن ذلك كان أكثر اتساعا وأعمق أثرا مما وجدناه فى العصر الأموى لسبب بسيط وهو أن أغلب الشعراء كانوا أجانب فكان فيهم النبطى مثل أبى العتاهية ، والسندى مثل هارون مولى الأزد ، وأبى العطاء ، أما الفرس فلا نستطيع إحصاءهم ، وكان منهم بشار بن برد ، وأبان بن عبد الحميد ، وسلم الخاسر ، ومروان بن أبى حفصة ، وأبو يعقوب الخريمى ، ومسلم بن الوليد وغيرهم كثير(٢) .

بيد أن التقاء العربية بغيرها من اللغات — وخاصة الفارسية — كان له نتائج هامة أخرى .. فبالإضافة إلى ظهور اللحن ، وضعف السلائق العربية ، نشأ أسلوب جديد ، عربى مولد ، له خصائص ومميزات يفترق بها عن أسلوب اللغة العربية الأصيلة ، التى حملها العرب معهم إلى الأمصار المفتوحة. ويرى كثير من الباحثين المحدثين(٣) أن هذا الأسلوب — إنما نشأ نتيجة للتطور

---

(١) أفاض الجاحظ فى وصف هذه اللكنات ، وما كانت تسببه من لثغات فقال فى بيانه : « قد يتكلم المغلاق الذى نشأ فى سواد الكوفة بالعربية المعروفة ، ويكون لفظه متخيراً فاخراً ، ومعناه شريفاً كريماً ، ويعلم من ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطى ، وكذلك إذا تكلم الخراسانى على هذه الصفة فإنك تعلم مع إعرابه وتخير ألفاظه فى مخرج كلامه أنه خراسانى ، وكذلك إن كان من كتاب الأهواز » .

(البيان والتبيين ١ - ٦٩) .

(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، ص ١٢١ .

(٣) الأستاذ الدكتور شوقى ضيف : « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » أنظر المقدمة للطبعة الثانية . وكتابه أيضاً « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » ص ٥ وما بعدها .

والأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة : « إتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى » صفحة ٨٣ ، طبع دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٦٣ م .

اللغوى ، وبفعل الحضارة والمدنية ، ويذكرون أن هذا الأسلوب المولد — جانب من الجوانب الإيجابية فى حياة اللغة ، حيث نشطت لتساير التطور الحضارى والثقافى والعلمى فى البيئة الجديدة التى تضم أشتاتا وأخلاطا من الأجناس واللغات . وكانت أولى سمات هذا الأسلوب الجديد ، اختلافه فى استعمال بعض الألفاظ اللغوية عما كانت تقرره العربية الأصيلة فى الأسلوب القديم . ونحن حين نذكر الأسلوب المولد ونتحدث عن خصائصه ، لا نقصد به — بالطبع — ذلك الأسلوب الذى يحتوى على الخطأ واللحن أو الخروج عن القواعد الموضوعة — وإنما نعنى به الأسلوب الجديد ، الذى استحدثته الحضارة ، وعبر عنها وبَعُد قليلا أو كثيرا عن لغة البداوة وظهر متميزاً عن الأسلوب العربى الأصيل فى نواح تتصل بالألفاظ والتراكيب اللغوية ونسق التعبير ، وموسيقى العبارة ، بل فى معظم الأركان التى يتألف منها الكلام والتعبير .

وقد أثر هذا الأسلوب المولد فى البيئة العربية تأثيراً له شأنه ، وزحف إلى الجزيرة العربية ذاتها ، حيث بدأ فى الظهور أواخر القرن الأول حتى بين الشعراء ذوى الأصل العربى الثابت ، والذين يعتبر شعرهم بدويا مثل : ذى الرمة(١) . فقد أخذ عليه الأصمعى استعماله — فى شعره — لصيغ مولدة أدركها بذكائه وفطرته اللغوية ، وحدد من أين دخلت إلى شعره ، فراه يقول « إن ذا الرمة قد أكل البقل والمملوح فى حوانيت البقالين حتى بشم » . وهو يقصد من ذلك ليس المعنى القريب الذى توحى به العبارة ، بل يقصد أن ذا الرمة قد أثرت فى لغته الحضارة الجديدة ، فظهر فيه هذا الأسلوب الجديد الذى هو سمة من سماتها .

---

(١) لأستاذنا الدكتور يوسف خليف دراسة ممتعة بعنوان (ذو الرمة شاعر الحب والصحراء) طبع دار المعارف ، سنة ١٩٧٠ . أنظر ما يتصل بالناحية اللغوية لهذا الشاعر فى الفصل الرابع ، « بين التقليد والتجديد » ، ص ٣٦٢ وما بعدها .

وللأستاذ الدكتور شوقى ضيف دراسة للوحات ذى الرمة فى كتابه « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » ، طبع دار المعارف ، سنة ١٩٥٩ . ، ص ٢٦٥ وما بعدها .

وهكذا نلاحظ أن اللغة العربية منذ فجرها الأول إلى العصر العباسى قد اجتازت أطواراً لغوية ثلاثة(١) :

الطور الأول — طور العربية الفصحى :

وهو الطور الذهبي فى حياتها ، حيث كانت القدوة والمثل ، يسعى الجميع إلى الحفاظ عليها وصيانتها والتمسك بها ، وكان الشعراء عربا يتمثلون شعرهم البدوى القديم ، ويسيرون على نهجه ، ويتبعون سننه وتقاليده ، وكانت لهم السيطرة السياسية والاجتماعية واللغوية على الأقاليم المفتوحة والأسلوب عربى سليم ، يستمد مثله الفنية من الأسلوب البدوى القديم تارة ، ومن الأسلوب الإسلامى الجديد تارة أخرى ، ولكنه فى كلتا الحالين بعيد عن التأثر بالحياة اللغوية المحلية ، وبعيد عن التأثر بالعربية المولدة التى كانت تأخذ طريقها نحو الظهور والاستقرار ، ولكنها لم تكن قد وصلت بعد إلى الدرجة التى تهدد العربية الفصحى بخطر الفساد والانحلال ، وقد استمر هذا الطور حتى الثلث الأخير من القرن الأول(٢) .

الطور الثانى — طور الصراع بين العربية الفصحى والعربية المولدة :

وفى هذا الطور كانت العربية الفصحى تواجه زحفا من العناصر الطامحة الأجنبية ، الذين يسعون إلى امتلاك زمامها ، كما كانت تجد مزاحمة من العربية المولدة التى نشأت على ألسنتهم وتحت رعايتهم ، وقد استمر هذا الطور من الثلث الأخير من القرن الأول حتى الثلث الأول من القرن الثانى . وفى هذه الفترة نلاحظ أن المجتمع الأدبى أخذ يتغير ، وأخذت العناصر الأجنبية تدخل فيه بأقدام ثابتة ، فقد أخذت تظهر الطبقة الأولى من الشعراء الموالى الذين دخلوا فى الميدان الفنى ، بعد أن تم تكوينهم اللغوى ، منافسين أشداء للشعراء العرب ، فى حين بدأ يظهر عند الشعراء العرب أنفسهم — بحكم ظهور العربية

---

(١) أنظر ما ذكره البغدادى عن عصور الاحتجاج اللغوى فى : الخزانة ١-٦ وما بعدها .

(٢) حياة الشعر فى الكوفة ، ص ٦٧٧ .

المولدة — تغير ملحوظ فى مقدرتهم على استخدام المادة اللغوية كما كان يستخدمه الشعراء القدماء ، فقد ظهر عندهم فتور فى الحس اللغوى ، وهو فتور كان ييسر السبيل أمام الأخطاء اللغوية للظهور(١) . ومع أن الطراز الرفيع من الشعر ظل يجرى — كما يقول فلك — : « على السنن المرسوم ، والنظام المتبع ، ليس فقط من حيث الموضوع ومادة الألفاظ ، ومناهج الأساليب ، بيد أنه — على الرغم من ذلك — كان فى الأول يصدر عن طبع صادق ونبع أصيل ، أما فى ذلك العهد فقد انتشرت الصنعة والتقليد » (٢).

وكان من جراء هذا الصراع وآثاره أن ظهرت حركة تنقية اللغة ، لتطهير العربية وتخليصها من الشوائب الأجنبية .

أما الطور الثالث — من أطوار حياة اللغة العربية — فهو طور العربية المولدة (٣)

وقد بدأ هذا الطور تقريبا مع قيام دولة بنى العباس ، وسقوط دولة بنى أمية ، وفيه أخذت بواكير الحياة العقلية فى الظهور ، وكان أعلام هذه الحياة فى الفقه والنحو واللغة والرواية قد أخذوا يسجلون نتائج بحوثهم ، ودراساتهم ، وكانت حركة «التَّنْقِيَة اللغوية» قد بلغت أشدها بعد أن أصبحت الفصاحة أمراً غير طبيعى فى مجتمع انتشرت فيه العناصر الأجنبية ، وتغلغت فى مختلف ميادينه السياسية والاجتماعية واللغوية والأدبية ، فى حين تراجعت العناصر العربية تراجعاً ملحوظا بالنسبة لمراكزها فى العصرين السابقين ، وأخذ اللحن فى الظهور بصورة واضحة ليس فقط فى المجتمع العام ، ولكن أيضا فى المجتمع الأدبى نفسه ، الأمر الذى دفع علماء اللغة والنحو إلى عدم الاحتجاج بالآثار الأدبية للشعراء المعاصرين مهما تكن درجة فصاحتهم وسلامتهم اللغوية ، مبالغة فى الاحتياط ، وحرصاً على صحة القواعد التى يضعونها ، والنتائج التى يسجلونها .

---

(١) حياة الشعر فى الكوفة ، ص ٦٧٨ .

(٢) العربية ، ص ٣٧ .

(٣) أنظر فى سمات هذا التطور ما كتبه « فلك » فى الفصل السادس من كتابه « العربية » عن العلاقات اللغوية فى عصر المأمون (ص ١١١ — ١٢٩) .

٥ ــ حركة تنقية اللغة العربية :

رأينا ــ فيما سبق ــ أن العرب المسلمين حين فتحوا الممالك والأمصار ، ودخل الداخلون فى دين الله أفواجا .. اختلط العرب بالأعاجم بالمجاورة والمصاهرة فاشتبه القول على العرب الناشئين ، وصعب النطق على الموالى المتعربين ، فنشأ اللحن فى المدن والحواضر ، وسرعان ما فشا فشواً ظاهراً فى العصر الأموى ، ولم يحل شيء دون الوقوع فيه ، مما أدى إلى قيام حركة التنقية اللغوية ، التى كانت انتفاضة أيقظت الأذهان ، وألهبت العقول ، وألهمت الأفكار ، ودفعت المحافظين على اللغة إلى التصرف صيانة لها ، وحفاظاً على أصولها وتراثها ، وأدى ذلك كله إلى خلق أنواع جديدة من العلوم اقتضتها الحياة الأدبية فى الأقاليم والأمصار ــ خاصة فى العراق ــ لتطهير اللغة العربية وتخليصها من الشوائب الأجنبية . بعد أن تغيرت البيئة ، وتنوعت الثقافة ، وتباينت الأوضاع السياسية والاجتماعية .

سار أصحاب « مبدأ التنقية اللغوية » فى طرق متعددة ، ومسارات متوازية كلها تؤدى إلى الهدف المنشود ، وهو محاربة اللحن بأنواعه(١) وظواهره ، وحماية اللغة والرجوع بها إلى العهد الذهبى حيث الفصاحة والجزالة ، وكانت وسيلتهم فى ذلك : الإرشاد والتقويم ، ثم التأليف والتصنيف فيما يتصل بتقويم اللسان وإصلاح المنطق ، وأخيرا التربية والتعليم .

كان اللحن فى شريعتهم اللغوية : مخالفة العربية الفصحى ــ اللغة البدوية ــ فى الأصوات أو فى الصيغ ، أو فى تركيب الجملة وحركات الإعراب ،

---

(١) اللحن ثلاثة أنواع : لحن فى مخارج الحروف ، ولحن فى تركيب الجمل ، ولحن فى الإعراب . (أنظر ما كتبه الدكتور حسين نصار عن اللحن وأنواعه فى « المعجم العربى نشأته وتطوره » ١-٢٣ ــ ٢٤) .

أو فى دلالة الألفاظ(١) .

وهذا المعنى ، بهذا التحديد — متأخر عن المعانى الأخرى للحن(٢) ، وربما كان ذلك ناتجا عن تأخر ظهور اللحن فى كلام العرب أنفسهم ، فنحن لا نملك نصوصا تدل على هذا المعنى بهذا المفهوم قبل العصر الأموى(٣) . يدل على ذلك قول ابن فارس :

« فأما اللحن — بسكون الحاء — فإمالة الكلام عن جهته الصحيحة فى العربية ، يقال لحن لحنا ، وهذا عندنا من الكلام المولد ، لأن اللحن محدث لم يكن فى العرب العاربة ، الذين تكلموا بطباعهم السليمة »(٤) . وعبارة

---

(١) وهذا ما كان يعنيه العلماء قديماً حين ألفوا كتبهم فى لحن العامة . أنظر فى اللحن والتطور اللغوى ، الكتب الآتية :

- لحن العامة والتطور اللغوى للدكتور رمضان عبد التواب ، طبع دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٧ م .
- لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية للدكتور عبد العزيز مطر ، طبع الدار القومية للطباعة والنشر ، سنة ١٩٦٦ م .
- اللغة والنحو للدكتور حسن عون ، طبع الإسكندرية ، سنة ١٩٥٢ م .
- مستقبل اللغة العربية المشتركة للدكتور إبراهيم أنيس ، نشر معهد الدراسات العربية بالقاهرة ، سنة ١٩٦٠ م .

(٢) تطلق كلمة « اللحن » فى اللغة على عدة معانى جمعها ابن برى فى قوله : « واللحن ستة معان الخطأ فى الإعراب ، واللغة ، والغناء ، والفطنة ، والتعريض ، والمعنى » .

(أنظر لسان العرب ، مادة لحن ، ج ١٧ ، ص ٢٦٥ .) .

(٣) أنظر ما روى عن عبد الملك بن مروان فى العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٤٧٩ وما بعدها ، والبيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٢١٦ وما بعدها . ومن هذه النصوص رجز رؤبة بن العجاج يقول فى أرجوزة مدح بها بلال بن أبى بردة (اللسان ، مادة : لحن) :

وُزْتُ بقَدْرٍ معرب لم يلحــن

ويقول السيد الحميرى (الموشح ، ص ١٤٠ ، ط السلفية ، سنة ١٣٤٣ هـ) :

أحواء ولا أقوى ولست بلا حن وكم قائل للشعر يقوى ويلحَنُ

(٤) مقاييس اللغة ، ج ٥ ، ص ٢٣٩ .

ابن فارس « إمالة(١) الكلام عن جهته الصحيحة فى العربية » وإنما يقصد بها مخالفة الفصحى بوجه من الوجوه السابقة . ويبدو أن العرب لم ينتبهوا لهذه الظاهرة ، ولم يلتفتوا إلى الخطأ فى لغتهم أو يحسوا به إلا حين اختلطوا بغيرهم من الشعوب الأجنبية ، لذلك ظهر اللحن متأخراً على ألسنتهم ، ويؤيد هذا الرأى الزبيدى بقوله : « ولم تزل العرب تنطق على سجيتها فى صدر إسلامها ، وماضى جاهليتها ، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان ، فدخل الناس فيه أفواجا ، وأقبلوا إليه أرسالا واجتمعت الألسنة المتفرقة ، واللغات المختلفة ، ففشا الفساد فى اللغة العربية(٢) .

ويصدق « فلك » على هذا الرأى بقوله : « ولا يزال ينقصنا بعد كل دليل يبين متى تم نقل لفظ اللحن إلى معنى الخطأ فى الكلام ، وأغلب الظن أنه استعمل لأول مرة بهذا المعنى عندما تنبه العرب بعد اختلاطهم بالأعاجم إلى فرق ما بين التعبير الصحيح والتعبير الملحون »(٣) .

أما عن أولية اللحن ، فقد زعم الفراء — فيما ذكره ابن السكيت — « أن أول لحن سمع بالعراق : هذه عصاتى(٤) فإن صح هذا الزعم ، فان أول لحن يكون قد ظهر فى زمن أبى الأسود الدؤلى (ت ٦٩ هـ) . فقد روى أبو الطيب اللغوى عن الخليل قوله(٥) : « لم يزل أبو الأسود ضنينا

---

(١) وقد أورد الزمخشرى لفظ (مال) فى تفسيره للحن بهذا المعنى ، قال فى الأساس : مادة لحن : (لحن فى كلامه إذا مال به عن الإعراب إلى الخطأ) .

(٢) طبقات النحويين واللغويين ، ص ١ ، ٢ .

(٣) العربية ، ص ٢٤٥ .

(٤) إصلاح المنطق ، ص ٢٩٧ . وإن كان الجاحظ قد روى أن أول لحن سمع بالبادية « هذه عصاتى » ، وأول لحن سمع بالعراق « حى على الفلاح » .

(البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ١٢٩) .

وأنظر قصة أبى الأسود مع إبنته التى كانت تلحن ويحاول ردها (الاضداد لابن الأنبارى صفحة ٢٤٥) .

(٥) مراتب النحويين ، ص ٨ .

بما أخذه عن على عليه السلام ، حتى قال له زياد : قد فسدت ألسنة الناس ، وذلك أنهما سمعا رجلا يقول : سقطت عصاتى ، فدافعه أبو الأسود ، ثم قام أبو الأسود يوضع أبواب من النحو ، ثم اختلف الناس إليه يتعلمون منه العربية ، ويفرع لهم ما كان أصله » (١) .

والظاهر أن نوعية اللحن اختلفت باختلاف الأجناس وطبيعة الألسنة ، ذلك أن ظهور اللحن عند العرب كان يختلف عنه عند الموالى ، فقد ظهر اللحن عند العرب فى الإعراب أولا ، نتيجة للبعد عن البادية ، وضعف السليقة العربية ، وقلة تمرن اللسان على نطق النماذج العربية الفصيحة من الشعر ، يؤيد ذلك قول أبى الطيب اللغوى : « واعلم أن أول ما اختل من كلام العرب ، فأحوج إلى التعلم الإعراب »(٢) ويتابعه أبو بكر الزبيدى فيقول : « ففشا الفساد فى اللغة العربية ، واستبان منها فى الإعراب الذى هو حليتها والموضح لمعانيها(٣) . ونتيجة لهذا ولد الدافع فى نهاية القرن الأول إلى دراسة قواعد اللغة ضمانا لسلامتها من هذا الخلل والفساد الذى كان يهددها فى أصولها وحركاتها وأصواتها .

أما لحن الموالى ، فقد كان أكثره فى نطق الأصوات العربية التى لا توجد فى لغاتهم »(٤) وكذلك كانوا يخطئون فى الصيغ (٥) .

---

(١) مراتب النحويين ، ص ١١ .

(٢) مراتب النحويين ، ص ٥ .

(٣) طبقات النحويين واللغويين ، ص ١ .

وقد سجل لنا الجاحظ وابن قتيبة مئات الحالات من اللحن الذى يتصل بالظواهر الإعرابية . (أنظر البيان والتبيين ٢-٢١٠ — ٢٢٠ ؛ عيون الأخبار ٢-١٥٩ — ١٦٢ ؛ وانظر أيضاً العقد الفريد ٢-٤٧٨ — ٤٨٣) .

(٤) مثل نطق العين همزة فى قول زياد النبطى لغلامه : « من لدن دأوتك إلى أن قلت : لبى ما كنت تصنأ » أى دعوتك وتصنع .

ومثل النطق بالحاء هاء فى قول مولى زياد لزياد : « أهدوا لناهمار وهش » أى حمار وحش. (البيان والتبيين ٢-٢١٣ ؛ وعيون الأخبار ٢-١٥٩) .

(٥) من ذلك قول أم نوح وبلال ابنى جرير وكانت أعجمية : « يا نوح : جردان دخل فى عجان امك » وكان الجرذ أكل من عجينها (البيان والتبيين ٢-٢١٣) .

ومن الغريب حقاً — أن كتب « لحن العامة » التى ألفت لمحاربته ، يندر فيها ما يتصل باللحن فى الظواهر الإعرابية ، ولعل السبب فى ذلك أن قواعد النحو قد وضحت بعد أبى الأسود والخليل وسيبويه ، ولأن التنبيه على الأخطاء الإعرابية لم تكن فى حاجة إلى مؤلفات خاصة ، كما كانت الظواهر اللغوية الأخرى فى حاجة إلى هذه المؤلفات(١) .

كان على القائمين بحركة التنقية أن يجدوا علاجا لهذا اللحن بأنواعه ، واتخذ نشاطهم فى سبيل ذلك مظهرين :

— المظهر الأول هو « ضبط اللغة » .

— أما المظهر الثانى فهم نشاطهم الأدبى .

واتخذ الطريق إلى ضبط اللغة مسارين :

١ — مسار يتصل بضبط أواخر الكلمات — أى إعرابها لمحاربة اللحن .

٢ — وآخر يتصل بإعجام الحروف — أى بوضع النقاط التى تميز حرفاً عن حرف لمحاربة التصحيف .

وكانت اللبنة الأولى للمسار الأول ، هى أساس النحو العربى حيث عالج أبو الأسود الدؤلى — إن صح ذلك — قضية النطق الصحيح لآيات القرآن الكريم معالجة عملية .. وذلك بوضع نقاط من مداد أحمر على أواخر الكلمات ، تميز المرفوع والمنصوب والمجرور ، محدداً بهذا النقط معالم النطق العربى أمام الأعاجم الأجانب عن اللغة ، بعد أن دخلوا فى الدين الإسلامى ، واتخذوا من لغة العرب لسانا جديداً لهم(٢) .

لقد كان عمل أبى الأسود أول عمل منطقى وعملى يتمشى مع ظروف البيئة والمجتمع وطبيعة العصر ، والخطوة العملية فى محاربة اللحن والمحافظة

---

(١) لحن العامة للدكتور عبد العزيز مطر ، ص ٣٠ .

(٢) أفاضت الكتب القديمة والحديثة فى وصف هذا العمل وشرحه ، أنظر مثلا : طبقات النحويين للزبيدى ، (ترجمة أبى الأسود) ، ونزهة الألباء ، ص ٦ .

وانظر أيضا : كتاب اللغة والنحو للدكتور حسن عون (الفصل الأخير) .

على سلامة اللغة(١) .. كما كان استجابة لضرورة فعلية ملحة .. هى وجود العرب فى بيئة العراق بين أجناس متعددة من البشر ، نكاد نقول أن العرب يكونون أقلية بين خليط عجيب من الفرس اليونانيين والزُّط والهنود والصنيين واليهود والسريان .

أما المسار الثانى — فهو تمييز الحروف الهجائية ، وكان هذا النشاط اللغوى محاولة تالية أعقبت المحاولة الجادة التى قام بها ، وسبق إليها أبو الأسود فى تبيين إعراب الكلمات وضبط أواخرها . وكانت محاولة تمييز الحروف الهجائية أو إعجامها هى من صنيع نصر بن عاصم (٨٩ هـ)(٢) بدعوة من الحجاج ابن يوسف الثقفى ، وفى خلافة عبد الملك بن مروان ، وقد عرف هذا العمل بنقط الإعجام ، أى تمييز الحروف الهجائية بعضها عن البعض الآخر بحيث يتميز رسم الصوت الهجائى عن رسم صوت آخر .

وكانت هاتان العمليتان تمثلان أولى الخطوات التى اتخذها زعماء حركة التنقية اللغوية فى سبيل غايتهم . وكانتا بمثابة الحافز القوى والملح فى نفس الوقت ، لهم بصفتهم المشرفين على شئون اللغة العربية كى يتدبروا أمر لغتهم ، ويمهدوا سبيل قراءة نصوصها قراءة سليمة ، وكتابة تلك النصوص كتابة مستقيمة غير معتمدين على الفطرة والسليقة كما كان شأنهم معها من قبل ، بل على المعالم الواضحة والضوابط البينة ، رغبة فى تطويعها وتعبيد الطريق أمام من يريد أن يتعلمها من الأجانب(٣) . ومما يجدر ذكره — فى هذا المقام — هو أن هذه المحاولات لضبط اللغة العربية قراءة وكتابة تمت بوحى وشعور

---

(١) أنظر تفصيل ذلك فى كتاب « صور ملهمة من واقع المجتمع العربى » للدكتور حسن عون من صفحة ١٤٦ إلى ١٥٠ .

(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف : لأبى أحمد العسكرى ، ص ١٣ ، تحقيق عبد العزيز أحمد ، طبع مصطفى الحلبى ، سنة ١٩٦٣ م .

(٣) ثم تبعت عمليات الإعراب والإعجام محاولات تكميلية فى النحو وقضاياه ، وفى اللغة وتصاريفها ، هذه المحاولات هى التى كانت إرهاصاً لنشأة النحو العربى وتتويجه بكتاب سيبويه . (أنظر دراسات فى اللغة والنحو للدكتور حسن عون ، ص ٦٣) .

من أولى الأمر من العرب ، وعلى أيدى شخصيات بارزة فى المجتمع العربى الإسلامى .

كان هذا العمل — النقط الإعرابى والإعجامى — أحد مظهرين جادين من مظاهر النشاط العقلى اللغوى للعرب فى هذه البيئة العراقية ، التى كانت تمثل بوتقة انصهر فيها عدد من الحضارات القديمة العريقة(١) ، وتكونت نتيجة لهذا الانصهار الدعامة الكبرى لتأسيس الحضارة الإسلامية .

أما المظهر الثانى — فكان نشاطهم الأدبى .. وسنتحدث عنه بعد قليل .

وقد تبع عمليات الإعراب والإعجام — حركة دائبة لجمع اللغة من أفواه الأعراب الموثوق بهم ، واستقراء شواهدها ، ثم وضع قواعدها وتصاريفها . ونحن نعلم أن الميدان اللغوى كان كل شىء فى ذلك العصر ، تتنافس فيه العقول وتتصارع فيه القرائح ويستنفد فيه جانب كبير من الطاقات الفكرية .. ومن الطبيعى جداً فى مثل هذه الظروف أن تتولد بعض القضايا وتوجد بعض المصطلحات النحوية ، ويتكون لدى العلماء والدارسين آراء فى النحو ، وملاحظات على الإعراب ، وأفكار تتصل بالجملة والتركيب اللغوى من حيث مفرداته وصوره الشكلية . وقد يكون هناك تسجيل لهذه الملاحظات وتلك القضايا(٢) . وفى ضوء ذلك كله استنكر اللحن استنكاراً شديداً ، وأصدق ما يمثل هذا الاستنكار قول الخليفة عمر بن عبد العزيز : « إن الرجل ليكلمنى فى الحاجة يستوجبها فيلحن فأرده عنها وكأنى أقضم حب الرمان الحامض ، لبغضى استماع اللحن ، ويكلمنى آخر فى الحاجة لا يستوجبها فيعرب ، فأجيبه إليها التذاذا لما أسمع من كلامه » . وقوله أيضاً : « أكاد أضرس

---

(١) كالحضارة السومرية والبابلية والآشورية والفارسية واليونانية والسريانية والعبرية . (صور ملهمة من واقع المجتمع العربى ، ص ١٤٦) .

(٢) يؤيد ذلك — أن كتاب سيبويه وهو أول كتاب منظم فى النحو العربى حصيلة طيبة لتلك المحاولات السابقة ، والملاحظات والآراء العديدة التى كانت تدور بين أولئك العلماء ... (وأنظر ايضاً دراسات فى اللغة والنحو ، ص ٦٣ وما بعدها) .

إذا سمعت اللحن »(١) .

ثم شهد العصر العباسى استمراراً للحركة اللغوية الدائبة ، التى تدور فى كافة المناحى من أجل تنقية اللغة والحفاظ عليها ، حيث اهتمت — بعد مرحلة الانطلاق فى جمع اللغة ووضع قواعدها والتأليف فيها ، ووضع بعض المعجمات — بجمع ما شاع على ألسنة الناس من كلام مختلف عن سنن الكلام العربى الفصيح ، وبخشى أن يمتد خطره إلى اللغة الأدبية المشتركة . فكان من الطبيعى أن تثار حمية العلماء فيهبوا مدافعين عن اللغة العربية ، وبدأ فى الظهور مصنفات فى لحن العامة ، بل فى أوهام الخواص على ما هو معروف .

وهذه المصنفات خدمت بلا ريب مبدأ تنقية اللغة ، وعاونت على احتذاء عربية البدو التى صارت تعد القدوة المثلى ، وكان أول كتب هذا اللون فى ذلك العصر كتاب لحن العامة(٢) الذى ينسب إلى الكسائى (١٨٩ هـ) ، والذى يقال أنه ألفه لتلميذه هارون الرشيد .

---

(١) الاضداد لابن الأنبارى ، ص ٢٤٤ .

ويقول عبد الملك بن مروان : « اللحن فى الكلام أقبح من التفتيق فى الثوب والجدرى فى الوجه» وقوله : « الإعراب جمال للوضيع ، واللحن هجنة على الشريف » .

(أنظر العقد الفريد ٢-٤٧٨ وما بعدها ، طبع لجنة التأليف والنشر) .

(٢) كان هم من ألفوا فى لحن العامة أن يجمعوا طائفة من الألفاظ التى يخطىء فيها الناس فى زمانهم ويبرهنوا على خطئها ، بالرجوع إلى المادة التى جمعها اللغويون الأوائل من أفواه العرب وليس المقصود من العامة هنا الدهماء وخشارة الناس ، فما كان يهم اللغويون من أمرهم شيئا ، وإنما المقصود بهم عند هؤلاء — هم المثقفون الذين تتسرب لغة التخاطب والحياة اليومية إلى لغتهم الفصحى فى كتاباتهم أو أحاديثهم فى المجالات العلمية والمواقف الجدية والوعظ مثلا .

يقول الصولى (أدب الكتاب ، ص ١٣٠) : « اللحن فى الكتاب أقبح منه فى الخطاب ، وأكثر العلماء يلحن فى كلامه لئلا ينسب إلى الثقل والبغض ، فأما فى الكتاب وإنشاد الشعر فإن ذلك قبيح جداً وغير جائز . » .

وقد وصل ببعض العلماء الأمر أن يخصوا بكتاباتهم خاصة المثقفين كالحريرى مثلا — الذى يسمى كتابه « درة الغواص فى أوهام الخواص » .

(أنظر : لحن العامة التطور اللغوى للدكتور رمضان عبد التواب ، ص ٦٤) .

ثم شهد القرن الثالث موجة عارمة من التأليف فى لحن العامة وإصلاح المنطق(١) حيث اهتم العلماء بالإضافة إلى تنقية اللغة معالجة داء اللحن والخطأ فى الكلام ، بالتوجيه إلى فصيح الكلام ونبذ اللهجات العامية وإعادة الخارجين على اللغة الفصحى إلى حظيرة اللغة القديمة ، وأكثر هذه الكتب لا تقف عند ذكر الخطأ وصوابه ، بل تورد شواهد من الشعر والنثر والأمثال والأخبار مما جعل لها وجهاً يقربها من كتب الأدب العام التى تعالج قضايا اللغة وسط هالة من الأدب(٢) .

وإذا أردنا أن نصنف هذه الكتب وفقا للمنهج الذى اتبعته فى ترتيبها ، وجدنا ثلاثة أصناف واضحة ينطوى كل منها على فرعيات تحته :

فالصنف الأول — وهو الأيسر — لم يسر على طريقة معينة ، وإنما أورد الألفاظ والأساليب كيفما اتفق الحال .

واتبع الثانى التقسيم إلى فصول ، تحتوى على أنواع متشابهة مُتَّفِقَة . .

أما الصنف الثالث ، فاتخذ طريقة الجداول(٣) .

---

(١) من كتب القرن الثالث : البهاء فى ما تلحن فيه العامة للفراء (٢٠٧ هـ) ، ولحن العامة لأبى عبيدة (٢٠٩ هـ) ، ما تلحن فيه العامة لأبى نصر الباهلى (٢٣١ هـ) ، لحن العامة للمازنى (٢٤٨ هـ) ، لحن العامة للسجستانى (٢٥٥ هـ) ، لحن العامة لأبى حنيفة الدنيورى (٢٩٠هـ) الفصيح لثعلب (٢٩١ هـ) .

وانظر ما كتب عن اللحن وكتبه ، مجلة مجمع اللغة العربية بمصر ، مقال عيسى اسكندر المعروف بعنوان « اللهجة العربية العامية » ، أول عدد ، عام ١٩٣٤ .

وكتاب لحن العامة والتطور اللغوى ، للدكتور رمضان عبد التواب ، ص ٩٧ وما بعدها ، حيث تناول بالدراسة مجموعة كبيرة من كتب لحن العامة .

والمعجم العربى .. نشأته وتطوره للدكتور حسين نصار ، فصل كتب لحن العامة ، من صفحة ٩٩ إلى ١١٥ . .

(٢) لحن العامة ، الدكتور عبد العزيز مطر ، ص ٨ .

(٣) أنظر تفاصيل ذلك فى المعجم العربى ، للدكتور حسين نصار ، ص ٩٩ وما بعدها . وانظر أيضاً رأى الدكتور رمضان عبد التواب فى هذا التقسيم ، تعليقه عليه فى كتابه « لحن العامة والتطور اللغوى » ، ص ٩١ وما بعدها .

واستلزمت محاربتهم للحن أن يتطرقوا أيضاً لدراسة المعرَّب (١) ، والمولدّ (٢) ، والدخيل(٣) وغير ذلك .

بيد أنه كان أمام زعماء حركة التنقية اللغوية نشاط آخر لايقل عن الأنشطة السابقة بل يفوقها ويتقدم عليها .. وهو النشاط الأدبى .

ذلك أنهم رأوا من أجل إنجاح حركتهم العلمية فى تنقية اللغة ، أن يضعوا أمام الجمهور النماذج العربية الفذة ، بكل تجاربها وعناصرها ، لتكون المثل الأعلى للفصاحة والبيان ، رأوا من أجل غايتهم أن يرجعوا إلى الأصل ، فالرجوع إلى الأصل رجوع إلى الحق والصدق الفنى ، ومحاكاة لغة الأقدمين إحياء وتخليدا لذكراهم وتراثهم ، وارتضاءاً بالمثل العربية الأصيلة ، فى زمان ضاع فيه الأصل والنسب ، واختلط الحابل بالنابل ، والنبطى بالهندى ، والفارسى بالتركى .. وضاع العرب بين هؤلاء وهؤلاء ، فبحثوا عما يربطهم بماضيهم ، ويخلد تراثهم ويجدد أمجادهم ووجدوا كل ذلك فى فنهم الشعرى الخالد ، ولكن أنىّ لهم بهذا الفن ، وقد مرت عليه السنون ، وبعدت بهم المسافة ، وشغلت القوم حياة الحواضر ..

فكان لابد لهؤلاء العلماء أن يطلبوا مع لغة العرب أدبهم ، وأن يأخذوا اللغة والأدب من مظانهما الأصلية ، فى بوادى العرب ، حيث الحياة البدوية على طبيعتها ، واللغة على نقائها ، والأعراب على فصاحتهم وسجاياهم ، لم تغرهم حضارة ولم يلههم ترف ، ولم تفسد ألسنتهم عجمة ، وإنما هى السليقة والفطرة والفصاحة ، لذلك شدوا الرحال إلى البيداء ، ليقتطفوا العربية — لغة وأدبا — من أفواه أصحابها البدو الخلص ، ثم عادوا يحملون فى جعبتهم

---

(١) المعرب هو ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوعة لمعان غير لغتها . (أنظر النوع التاسع عشر من المزهر ١-١٥٩) .

(٢) المولد هو ما أحدثه المولدون الذين لا يحتج بألفاظهم ، والفرق بينه وبين المصنوع أن المصنوع يورده صاحبه على أنه عربى فصيح وهذا بخلافه (المزهر : النوع الحادى والعشرون

(٣) الدخيل : أطلق العلماء لفظ الدخيل على الألفاظ الأجنبية الأصل التى كثرت فى العامية لعدم امتناعها منها وترحيبها بها (أنظر ما ذكره السيوطى فى المزهر ١-١٦٠) .

ثروة شعرية كان لها أروج أسواق العلم ، بالكوفة والبصرة ثم بغداد من بعدهما. فجمعت الأشعار وصنفت الدواوين ، واختيرت المختارات ، ووضعت بين يدى الجمهور الأدبى وأمام بصره وعقله وذوقه .. غير أن هذه الأشعار والدواوين كانت تمثل صعوبة على أفهام القوم(١) ، وغرابة على أذهانهم ، وهم الذين أبعدتهم الظروف الحضارية والاجتماعية عن منبت هذه الأشعار ، وبيئة قائليها ، كما أبعدت معانيها وأحداثها عن أفهامهم . فكان على العلماء أن يقربوا هذه الأشعار إلى ذلك الجمهور الأدبى بالشرح والتحليل ، والتفسير والتأويل ، تارة عن طريق التعليم العام فى المجالس والمساجد ، وأخرى عن طريق تصنيف الدواوين وتأليف الشروح .

إذن فقد نشأت بالضرورة — ونتيجة لمجهود علماء حركة التنقية اللغوية — حاجة إلى تقريب الشعر القديم وشرحه ، كان هدفها تفسير المثل العربية التى انطوت عليها معانى الجاهليين ، وتوضيح المجهودات الفذة فى النظم واختيار القوافى والسيطرة على اللغة التى يذللها ، ووضع كل ذلك نقياً صافيا أمام أفهام الجمهور المختلط ، الذى بعد عن بيئة الشعر ، وبعد عن الفصاحة ، وانزلقت على ألسنته العجمة ، وسيطر على لغته اللحن ، واختلفت ثقافته ، وتباينت ظروفه السياسية والاجتماعية عن الجمهور القديم .

ومن هنا وجدت الحاجة الثقافية إلى شرح الشعر وتقريبه لصقل الأذواق ، وتشجيع الهمم ، وجذب الاهتمام نحو الأخلد والأحسن والأعرق من الأدب . وكانت بغية العلماء من ذلك اشباع نهم الجمهور الأدبى المتعطش إلى الفن العربى الأصل وللثقافة العربية العريقة ، وللتراث العربى الخالد .. عن طريق تقريب النماذج الشعرية القديمة إلى عقله وقلبه .

---

(١) لم يعرض هؤلاء اللغويون على الجمهور نماذج الشعر القديم السهلة فحسب ، بل لقد كان همهم الأول أن يعرضوا عليهم نماذجه المويصة المليئة بالحواشى والألفاظ الغريبة ، ومضوا فجعلوها مدار إملاءاتهم ومحاضراتهم ، وفى ذلك يقول الجاحظ : « لم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إغراب ، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج » (البيان والتبيين ٤-٢٤) .

هذا فيما يتصل بالجمهور الأدبى .. بيد أن هؤلاء العلماء كان يشد اهتمامهم جمهور آخر ، إنه : « جمهور الشعراء » بل لعل اهتمامهم بهذا الجمهور الفنان المتعلم المثقف كان أكبر وأجدر ، ذلك لأنهم شعراء العصر ، وحملة مشعل الفن المتوارث ، وهم الطبقة الحساسة القادرة على الإبداع والخلق ، فكان اهتمام العلماء بالشعراء كبيرا ، خاصة أولئك الذين كان ينقصهم السليقة العربية ، أو يحيدون عن الأسلوب الفصيح ، أو ظهر فى شعرهم لحن ، أو يمارسون استخدام الأسلوب المولد . فكان العلماء يدلونهم على مواضع الضعف فى شعرهم ، ويحاولون جبر نقائصهم ، وتبصيرهم بنقاط الانحلال والضعف فى أسلوبهم وفى إنتاجهم . والحق أن علماء حركة التنقية اللغوية — وإن دخل بينهم الكثير من الموالى متعصبين للعربية كأهلها ، محاولين المساهمة بمجهوداتهم فى سبيل تنقيتها — كانوا حراسا أمناء على العربية البدوية وتراثها الشعرى ، واتخذوه مثلا أعلى للفن والفصاحة وقوة البيان ، وظلوا يذودون عنه ذياداً قوياً متعصبين للجاهليين تعصباً(١) شديداً ، فهم الشعراء حقاً وغيرهم عالة عليهم ، بل لقد أهدروا شاعرية معاصريهم ، ولم يجعلوا لشعرهم حرمة ولا فضلا ، إن قالوا حسنا فقد سُبِقُوا إليه ، وإن قالوا قبيحا فمن عندهم (٢). وقد أرهبوا الشعراء رهبة شديدة حتى لقد كان فريق منهم يعرض عليهم

---

(١) روى الرواة أن ابن مناذر كان يقول لأبى عبيدة :

« اتق الله واحكم بين شعرى وشعر عدى بن زيد ، ولا تقل ذاك جاهلى وهذا عباسى ، وذاك قديم وهذا محدث ، فتحكم بين العصرين ، ولكن أحكم بين الشعرين ودع العصبية » .

(الأغانى « ساسى » ١٧-١٢) .

وأنشد اسحق الموصلى بيتين من شعره للأصمعى دون أن يسمى قائلهما ، فلما أظهر إعجابه بهما قال له اسحق : إنهما من نظمه ، فبادره قائلا : « أنسدت الشعر ، إن التوليد فيهما لبين » .

(الأغانى ، دار الكتب ، ٥-٣١٨) .

وكان ابن الأعرابى يقول : « إنما أشعار هؤلاء المحدثين مثل الريحان يشم يوماً ويذوى فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيباً » .

(الموشح ، ص ٢٤٦) .

(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، ص ١٢٥ .

أشعاره قبل إذاعتها(١) ، وإن كان فريق آخر يعتد برأيه ونظمه ويرفض وصاية العلماء ، ولا يهتم برأيهم ، ويحمل عليهم ويهجوهم هجاءاً مراً(٢) .

كما استطاع العلماء بنشاطهم وذكائهم وحصافتهم أن يروجوا للغة الفصحى والشعر القديم عند الخلفاء والوزراء ، وفى المجتمعات العلمية ، وأخذوا فى تقريبه لهم بالشرح والتحليل ، وتبيين المضامين .. كل ذلك كان سببا فى إحياء السنن البدوية القديمة فى النفوس ، وجعلها مثلا أعلى للفصاحة ، على الرغم من تطور الشعر بتأثير العلاقات الاجتماعية والثقافية(٣) والحضارة .

لكن هؤلاء العلماء وإن كان نشاطهم ذا أثر فعال فى بث الشعر القديم وروحه البدوية فى الأذهان ، فإنهم لم يكونوا بمستطيعين أن يوقفوا المدّ الحضارى والثقافى الذى غمر اللغة والشعر والحياة جميعاً . فالشعراء العباسيون وإن تأثروا تأثرا كبيرا بهذه النماذج التى وضعها العلماء أمام أبصارهم وأذهانهم حية مكتملة مذللة مشروحة ، وحاولوا محاكاتها والنظم على منوالها ، واتباع تقاليدها ومثلها ، فإنهم لم يفلتوا من الأسلوب المولد أو يتخلوا كلية عنه .

وبذلك أصبح لديهم أسلوبان واضحان من الشعر : أسلوب جزل أصيل ، وأسلوب مولد . كان الأسلوب الجزل الأصيل فى بيئات العلماء من أصحاب

---

(١) عقد المرزبانى فى كتابه الموشح (ص ٣٥٨ وما بعدها) فصلا طويلا صور فيه كيف كان الشعراء يعرضون أشعارهم على اللغويين ليجيزوها لهم ، لأنهم قضاة الشعر وصيارفته .
وفى ذلك يقول الخليل بن أحمد لابن مناذر الشاعر : إنما أنتم معشر الشعراء تبع لى ، وأنا سكان السفينة إن قرظتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتم » .
(أنظر الأغانى ، طبعة الساسى ، ١٧-١٦) .
(وانظر كذلك الأغانى ، طبعة دار الكتب ، ١٠-٨١ ، ٨٢) .

(٢) الأغانى ٣-٢١٠ ، دار الكتب . (حيث هجا بشار الأخفش ، لأنه انتقد شعره ، ثم أخذ الأخفش بعد ذلك يستشهد بشعره خوفاً من هجائه اللاذع ») .

(٣) أنظر فى العلاقات الثقافية ، ما كتبه الدكتور شوقى ضيف فى كتابه « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » ، ص ١٢٩ .

اللغة والنحو ، وكان الأسلوب المولد يجرى خارج بيئات هؤلاء العلماء ، بين طبقات الشعب ، وبذلك اصطنع الشعراء لأنفسهم ضربين من الفن الشعرى

١ — ضرب بدوى : يتمسك بالتقاليد القديمة ، ويرضى أذواق العلماء والخلفاء وأصحاب حركة التنقية اللغوية .

٢ — وضرب حضارى : يبتعد قليلا أو كثيرا عن تلك التقاليد حتى يساير العصر ومتطلباته الحضارية والاجتماعية ، ويرضى أمزجة هؤلاء الشعراء المولدين أنفسهم .

وأخذ أصحاب الضرب الأول يكثرون فى شعرهم من الغريب ، حتى يجد فيه اللغويون ما يسد حاجتهم فى البحث والدراسة من الشواهد والأمثال ، وكانوا يؤلفونه غالبا من الرجز ، على نحو ما هو معروف عن أبى نخيلة والعمانى ورؤبة وابنة عقبة ، وكانوا يدلون بنماذجهم تلك على شعراء المدن ، فبعثوا فيهم نزعة إلى تقليدهم فى ذلك الميدان حتى يثبتوا لهم وللغويين أنهم يتفوقون عليهم حتى فى تلك الصناعة البدوية المسرفة فى البداوة(١) .. وكل ذلك كان حافزا أيضا للعلماء على شرحه وتحليله ومقارنته بأشعار القدماء ومعانيهم ، فقامت سلسلة من المقارنات النقدية التحليلية بين المعانى القديمة والحديثة وبين الألفاظ القديمة والحديثة ، وبين تشبيهات القدماء والمحدثين(٢) إلى غير ذلك من الموضوعات التى أثرت المكتبة العربية .

وأوضح ما يمثل لنا اصطناع الشعراء المولدين لأساليب القدماء ، ومحاولتهم تقليدها ، ما رواه الأصفهانى عن بشار . فقد روى أن بشارا : « دخل على عقبة بن سلم (والى البصرة) فأنشده بعض مدائحه فيه ، وعنده

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، ص ١٢٥ . وانظر اتجاهات الشعر العربى حتى القرن الثانى ، ص ٨٤ .

(٢) أنظر : المصون فى الأدب لأبى أحمد العسكرى ، ص ٦٦ وما بعدها (طبع الكويت) سنة ١٩٦٠ . وانظر أيضا : الموشح ، والشعر والشعراء ، ففيها مقارنات كثيرة حول المعانى والألفاظ والتشبيهات .

عُقْبَة بن رؤبة ينشده رجزاً يمدحه به، فسمعه بشار ، وجعل يستحسن ما قاله إلى أن فرغ ، فأقبل على بشار فقال : هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ ، فقال له بشار : أنى يقال هذا ؟ أنا والله أرجز منك ومن أبيك وجدك (يقصد العجاج) فقال له عقبة : أنا والله وأبى فتحنا للناس باب الغريب وباب الرجز ، والله إنى لحليق أن أسده عليهم ، فقال بشار : إرحمهم رحمك الله فقال عقبة : أتستخف بى يا أبا معاذ وأنا شاعر ابن شاعر ابن شاعر ؟ فقال له بشار : فأنت إذن من أهل البيت الذى أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، ثم خرج من عند عقبة (بن سلم) مُغْضَبا ، فلما كان من غد غدا على عقبة ، وعنده عقبة بن رؤبة ، فأنشده أرجوزته التى يمدحه فيها :

يا طللَ الحىِّ بذاتِ الصَّمَدِ بالله خَبِّر كيفَ كنتَ بعدى»

ومضى يرجز ويتكلف للغريب ويمزجه بشىء من الحضارة ودقة الحس والفكر وجمال الصياغة ، فطرب عقبة بن سلم ، وأجزل صلته ، وانكسر عقبة بن رؤبة إنكسارا شديدا(١) .

ومع أن الأمويين كانوا هم المشجعين لحركة التنقية اللغوية ورعاتها ، فقد كان المفروض أن تجمد هذه الحركة بسقوطهم .. إلا أن اللغة لم تنهر بانهيار دولتهم ، ولم تسقط بسقوطها بل ظلت لها الصدارة ، ذلك أن حياة الأدب واللغة لا ترتبط بسقوط دولة وقيام أخرى ، لأن عجلة التاريخ لابد أن تدور وأن حتمية التطور لابد أن تحدث ، والتطور اللغوى جانب من جوانب التطور المتعدد ، التى شملت نواحى الحياة العربية بأجمعها ، لذلك استمرت حماسة العباسيين للغة العربية ورعايتهم لمبدأ تنقيتها ، فظل نهرها جاريا ، وتيارها ساريا . يؤكد جريانه وسريانه عوامل عدة ، أن هذه اللغة هى لغة

---

(١) الأغانى : ٣–١٧٤ (دار الكتب ، وانظر طبقات الشعراء لابن المعتز ، ص ٢٥ . وليس بشار وحده الذى أثبت أنه يستطيع التفوق على شعراء البادية فى أرجازهم المملوءة بالغريب ، فقد تبعه أيضا أبو نواس يحاول أن يتفوق عليهم .

(أنظر ما قاله الجاحظ عنه فى الحيوان ٢–٢٧ وما بعدها) .

القرآن الكريم وبقاؤها مرتبط ببقائه ، متلواً محفوظا ، مكتوباً ومشروحا بين الناس ، كذلك ظلت القبائل العربية المقيمة فى بواديها محافظة على هذه اللغة كل المحافظة(١) ، وظلت تحوطها بسياج من الرعاية والتعهد ، ولا ترضى بغيرها بديلا ، ولم تقبل الخضوع للتيار الجديد .

وعامل هام — كان له أكبر الأثر فى بقاء الأسلوب الفصيح عملاقا — إلى جانب الأسلوب المولد — بل لعله من أقوى المؤثرات فى حركة اللغة العربية البدوية — ذلك العامل هو : اهتمام الموالى أنفسهم بالحفاظ على اللغة وتخليد تراثها ، فانكبوا على دراستها وإتقانها ، حتى لقد برعوا ونبغوا وكان لهم فضل التقنين والتقعيد لقواعدها وأصولها . ولم يمض وقت طويل حتى أصبح كثير منهم أعلاما فى علوم القرآن والحديث والفقه ، ويتولون مناصب الفقهاء والقضاء ، ونجد منهم من يبرزون فى علم اللغة العربية نفسه ، ومن يتقدمون فى مجال التأليف اللغوى والنحوى والأدبى .. وربما كان من الأسباب التى جعلت الموالى يصلون إلى هذه المكانة العلمية الرفيعة حرصهم على أن يثبتوا وجودهم فى هذا المجتمع الذى لم يكن يعترف بهم ، وكأنما كان نشاطهم العلمى الرد العملى على العرب الذين كانوا يرفضون فكرة المساواة بهم . وفعلا نجح الموالى فى بلوغ هدفهم هذا ، واستطاعوا أن يفرضوا أنفسهم على العرب وأن يجبروهم على احترامهم وتقديرهم وبخاصة فى الأوساط العلمية والدينية(٢)

---

(١) اعتمد الأزهرى فى تهذيبه للغة على مجموعة من هذه القبائل. فقد وقع فى إسار القرامطة ، وهم من العرب الخلص الذين — كما يقول الأزهرى (تهذيب اللغة ١–٧) : « نشأوا فى البادية يتتبعون مساقط الغيث أيام النجع ويرجعون إلى أعداد المياه ، ويرعون النعم ، ويعيشون بألبانها. ويتكلمون بطباعهم البدوية وقرائحهم التى اعتادوها ولا يكاد يقع فى منطقهم لحن أو خطأ فاحش »

كذلك أخذ ابن جنى — فى القرن الرابع الهجرى — الكثير من اللغة عن بعض الأعراب الفصحاء الذين كانوا يأتون إليه من البادية من هؤلاء بدوى يدعى محمد بن العَسَّاف العقيلى . (أنظر الخصائص ١–٧٦) .

(٢) ضحى الإسلام : ١–٢٧ ، ٢٨ ؛ وانظر ما كتبه ابن خلدون عن كثرة العلماء من الموالى وأسباب ذلك فى المقدمة ، الفصل ٣٥ من الباب السادس .

وانظر ما كتبه الدكتور يوسف خليف فى كتابه حياة الشعر فى الكوفة ، ص ٢٣٦ .

٦ — التصحيف والتحريف(١) :

حين قامت حركة التنقية اللغوية لم يكن هدف القائمين بها معالجة اللحن فى اللغة فحسب ، بل كانت محاولتهم ترمى أيضا إلى حماية اللغة العربية من كل

---

(١) التصحيف فى رأيهم أخذ العلم عن طريق الصحف ، دون لقاء الأساتذة العلماء والأخذ عن مجالس علمهم ، لذلك سموا هذه الفئة من الناس بالمصحفين ، اشتقاقاً من « التصحيف » أصله : « أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءة فى صحيفة ولم يكن سمعه من الرجال فيغيره عن الصواب . (قول المعرّى — المزهر ٢—٢٢٢) .

وقال الخليل : « إن الصحفى الذى يروى الخطأ من قراءة الصحف بأشباه الحروف ، وأصل هذا أن قوماً كانوا أخذوا العلم عن الصحف من غير أن يلقوا فيه العلماء ، فكان يقع فيما يروونه التغيير ، فيقال : قد صحفوا ، أى رددوه عن الصحف ، وهم مصحفون ، والمصدر التصحيف » . انظر شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف لأبى أحمد العسكرى ص ١٣.

وجاء فى المعجم الوسيط (١—٥١٠) التصحيف : كتابة الكلمة أو قراءتها على غير صحتها لاشتباه فى الحروف ، والصحفى من يأخذ العلم من الصحيفة لا عن أستاذ .

أما التحريف : فالمقصود به (تغيير المكتوب تغييراً يبدل المدلول الأصلى) ، ولهذا التغيير وجوه شتى ، فقد يكون تغييراً مباشراً لصيغة مكتوبة ، وقد يكون بالتصرف تصرفاً تعسفياً فى تلاوة صيغة صحيحة فى ذاتها ، إما بحذف أجزاء أو بإدخال الحشو عليها أو بتفسيرها تفسيراً يخرجها عن أصل مدلولها .

(أنظر مادة تحريف فى دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الرابع ، ص ٦٠٢ — ٦٠٨) .

بيد أن « تخصيص التحريف بأنه تغيير المكتوب » لا سند له من تفسير لغوييننا . ففى اللسان والقاموس والأساس والنهاية وغيرهم ، لا ينص على التخصيص بالمكتوب على حين ترجح عباراتهم أن التحريف تغيير الكلام مكتوباً أو مسموعاً . فاللسان يقول : التحريف فى القرآن والكلمة تغيير الحرف عن معناه ، والكلمة عن معناها . وابن الأثير فى النهاية يقول : تحريف الكلام أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين ، فردهم الاشتقاق إلى الحرف — حرف التهجى أو حد الشىء وطرفه — قد يبعد التخصيص بالمكتوب . ثم إلى جانب هذا تخصيصهم التصحيف بأنه الخطأ فى الصحيفة ، وكلمة التصحيف هى الكلمة المولدة التى خلفها انتشار الكتابة واتخاذ الصحف ، على حين أن التحريف هو الكلمة الأصلية المأخوذة من الحرف بأحد معانيه . (أنظر معاجم اللغة مادة : صحف) .

ومن التعريفات السابقة يتضح أن التصحيف يكون الخطأ فى لا إرادياً وعن غير قصد ونتيجة لعوامل خارجية عن إرادة وإمكانية القارىء أو الكاتب .

أما التحريف فقد يكون الخطأ فيه نتيجة عن تغيير مباشر ، أو تصرف تعسفى يرمى إلى تغيير المدلول إلى مدلول آخر لتفسيره بما يخالف المعنى الأصلى المقصود .

ما يشوبها أو يسيء إلى جوهرها نطقا وكتابة ، سماعاً وشكلا ، إعرابا وتصريفا تصحيفا وتحريفا .

فكان من بين الموضوعات التى أخذوا على عاتقهم النهوض بها محاربة التصحيفات والتحريفات التى طرأت على اللغة ، ونتج عنها تغيير معانى الكلام إلى غير المعنى الحقيقى المقصود .

لم يكن أمام القوم أى متعلم من العالم التى تتصل بكتابة اللغة أو الشعر أو النطق بهما ، فتميز كلمة عن أخرى مساوية لها فى الحروف .. كان الذى يميز بينهما الفطنة والسليقة من ناحية ، وسياق الكلام وتركيب الجملة من ناحية أخرى .. وأخيراً ذكاء الفرد وسرعة بديهته وقوة حفظه وسعة حفيظته ، وتلك أمور لم تكن متوفرة لدى الجميع ، ولم يكن ذلك من الأمور الهينة بالنسبة للجمهور .

لذلك كانت محاربة التصحيف والتحريف من أبرز الصعوبات التى واجهت القائمين على اللغة .

فقد أحس العلماء أن اللغة العربية — وهى مادة بحثهم — كانت تتعرض أثناء كتابتها وقراءتها إلى عوامل عدة متشابكة تؤدى بها إلى التصحيف والتحريف فاتخذوا الوسائل ونشطوا القرائح وشحذوا الهمم من أجل حماية اللغة . فإذا كانوا قد وضعوا الأسس من أجل إصلاح المنطق .. لمحاربة اللحن .. فقد كان عليهم أن يجدوا السبيل إلى إصلاح الكتابة أيضا لمحاربة التصحيف والتحريف .

اجتمعت عوامل متعددة أدت إلى ظهور التصحيف والتحريف فى اللغة العربية ، بعضها يرجع إلى اللغة نفسها ، وبعضها الآخر يخرج عن نطاقها . أما الأسباب التى ترجع إلى اللغة فأهمها :

(أ) إختلاف لغات العرب وتعددها بتعدد القبائل(١) :

قال أحمد بن فارس(٢) : اختلاف لغات العرب من وجوه وهى :

١ ــ الاختلاف فى الحركات : نحو نَسْتَعِين ونِسْتَعِين بفتح النون وكسرها

٢ ــ الاختلاف فى الحركة والسكون : نحو مَعَكَمَ ومَعْكَمَ .

٣ ــ الاختلاف فى إبدال الحروف : نحو أولئك وأُولالك .

٤ ــ الاختلاف فى إنّ زيداً ، وعِنّ زيداً .

٥ ــ الاختلاف فى الهمز والتليين : نحو مُسْتَهْزِءُون ومُسْتَهْزُون .

٦ ــ الاختلاف فى التقديم والتأخير : نحو صَاعقة صَاقعة .

٧ ــ الاختلاف فى الحذف والإثبات نحو : اسْتَحَيْتُ واستَحَيْتُ ، وصَدَدْتُ وأصْدَدْتُ .

٨ ــ الاختلاف فى الحرف الصحيح يبدل حرفا معتلا نحو : أمَّا زيد وأيْمَازيد

٩ ــ الاختلاف فى الإمالة والتفخيم مثل : قَضَى ورَمَى ، فبعضهم يفخم وبعضهم يميل .

١٠ ــ الاختلاف فى الحرف الساكن يستقبله مثله : فمنهم من يكسر الأول ومنهم من يضم نحو : اشتروا الضَّلَالَة ، واشتَرُوا الضلالة .

١١ ــ الاختلاف فى التذكير والتأنيث : فإن من العرب من يقول هذه البقر وهذه النحل ، ومنهم يقول : هذا النحل ، وهذا البقر .

١٢ ــ الاختلاف فى الإدغام : نحو : مُهْتَدُون ومهدون .

١٣ ــ الاختلاف فى الإعراب نحو : ما زيدٌ قائماً ، وما زيدٌ قائم ، وإن هذين وإن هذان .

١٤ ــ الاختلاف فى صورة الجمع نحو : أَسْرَى وأَسَارَى .

١٥ ــ الاختلاف فى التحقيق والاختلاس : نحو يأمُرُكُمْ ويامُرُكُمْ ، وعنى له وعن له .

---

(١) أنظر المزهر : النوع السادس عشر ، معرفة مختلف اللغة ، ١-١٥٢ وما بعدها .

(٢) الصاحبى فى فقه اللغة : ص ١٩ وما بعدها .

١٦ – الاختلاف فى الوقف على هاء التأنيث مثل : أُمَّهْ وأَمَتْ .

١٧ – الاختلاف فى الزيادة نحو : أُنْظُر وأنظور .

قال السيوطى(١) : « وكل هذه اللغات مسماة منسوبة إلى أصحابها ، وهى وإن كانت لقوم دون قوم ، فإنها لما انتشرت تعاورها كل » .

(ب) خصائص اللغة وسننها(٢) :

فللغة العربية خصائص وسنن سار عليها العرب فى كلامهم ، وكان لها أثر فى نشوء التصحيف والتحريف وبالتالى الى تغيير المعانى . من هذه الخصائص :

١ – قلبهم الحروف عن جهاتها(٣) ليكون الثانى أخف من الأول نحو : قولهم « ميعاد » ، ولم يقولوا « موعاد » .

٢ – تركهم الجمع بين الساكنين .

٣ – اختلاسهم الحركات فى مثل : « فاليوم أَشْرب غير مستحقب » .

٤ – الإدغام وتخفيف الكلمة بالحذف نحو : « لم يك » ، و« لم أُبل » .

٥ – إضمارهم الأفعال نحو : امرأ اتقى الله ، وأمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك .

---

(١) المزهر ١-١٥٢ . ومن الإختلاف أيضاً اختلاف التضاد وذلك كقول حِمْيَر للقائم ثِبْ أى اقعد (المصدر السابق نفسه ١-١٥٣) .

قال ابن جنى فى الخصائص :

« اللغات على اختلافها كلها حجة ، ألا ترى أن لغة الحجاز فى أعمال ما ، ولغة تميم فى تركه ، كل منهما يقبله القياس ، فليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها لأنها ليست أحق بذلك من الأخرى ، لكن غاية ما لك فى ذلك أن تتخير إحداهما فتقويها على أختها وتعتقد أن أقوى القياسين أقبل لها وأشد نسباً بها ، فأما رد إحداهما بالأخرى فلا ... » . (المزهر ١-١٥٣) .

وانظر أيضاً قول ابن فارس : « لغة العرب يحتج بها فيما اختلف فيه » .

(٢) المزهر للسيوطى « النوع الثانى والعشرون » ، معرفة خصائص اللغة ، ١-١٨٧ وما بعدها

(٣) ينظر « النوع الثالث والثلاثون » فى المزهر « معرفة القلب » ، ١-٢٨٢ وما بعدها .

قال ابن فارس فى فقه اللغة : « من سنن العرب القلب ، وذلك يكون فى الكلمة ويكون فى القصة ، فأما الكلمة فقولهم جبذ وجذب ، وبكل ولبك وهو كثير ... » .

٦ ــ الترادف(١) .

٧ ــ الإبدال ــ اى إبدال الحروف وإقامة بعضها مقام بعض ــ مثل : مَدَحَه ومَدَهَ ، ورفل ورفَنَ . وكذلك إبدال لام التعريف ميما ، والهمزة المصدرية عينا ، كقولهم فى نحو : أن : عن(٢) .

ومن خصائص العربية أيضاً(٣) :

٨ ــ مخالفة ظاهر اللفظ معناه ، كقولهم عند المدح (قاتله الله ما أشعره) فهم يقولون هذا ولا يريدون وقوعه .

٩ ــ الاستعارة : وهى أن يضعوا الكلمة للشىء مستعارة فى موضع آخر. فيقولون : (انشقت عصاهم إذا تفرقوا) و (كشفت عن ساقها الحرب)

١٠ ــ الحذف والاختصار : يقولون (والله أفعل ذلك) يريد (لا أفعل) .

١١ ــ الزيادة إما للأسماء أو الأفعال أو الحروف .

(ج) إتساع اللغة(٤) :

قال الشافعى(٥) : « لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا ،

---

(١) قال عبد الله بن خالويه : « جمعت للأسد خمسمائة اسم وللحية مائتين ، وجمع حمزة الأصبهانى من أسماء الدواهى ما يزيد على أربعمائة ، وذكر أن تكاثر أسماء الدواهى من الدواهى » . (المزهر ، ١- ١٨٩) .

(٢) ينظر النوع الثانى والثلاثون من كتاب المزهر « معرفة الإبدال » ١ــ١٧٢ وما بعدها .

(قال أبو حيان فى التسهيل : قال شيخنا الأستاذ أبو الحسن ابن الصائغ : « قلما تجد حرفاً إلا وقد جاء فيه البدل ولو نادراً) .

وانظر ما قاله أبو عبيدة فى الغريب المصنف ونقله عنه السيوطى فى المزهر ١ــ٢٧٣) .

(٣) المزهر ١ــ١٩٢ وما بعدها .

(٤) أنظر ما ذكره أحمد بن فارس فى فقه اللغة « باب القول على لغة العرب » ونقله عنه السيوطى فى المزهر ١ــ٢٠٠ ، أنظر النوع الثالث والعشرين « معرفة الاشتقاق » (١ــ٢٠٠) ؛ وانظر معرفة المشترك (١-٢١٧) قال ابن فارس فى فقه اللغة « باب الأسماء وكيف تقع عليها المسميات « يسمى الشيئان المختلفان بالإسمين المختلفين وذلك أكثر الكلام : كرجل وفرس ، وتسمى الأشياء الكثيرة بالإسم الواحد نحو : عين الماء وعين المال ، وعين السحاب ، ويسمى الشىء الواحد بالأسماء المختلفة نحو : السيف والمهند والحسام .. إلخ .

(٥) تهذيب اللغة : للأزهرى ، ١ــ٤ .

وما نعلم أحدا يحيط بجميعها غير نبي ، ولكنها لا يذهب منها شيء على عامتها حتى لا يكون موجوداً فيها ، والعلم بها عن العرب كالعلم بالسنن عند أهل الفقه لا نعلم رجلا جمع السنن كلها ، فلم يذهب عليه منها شيء ، فإذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على جميع السنن ، وإذا فرق علم كل واحد منهم ذهب على الواحد منهم الشيء منها ، ثم كان ما ذهب عليه منها موجوداً عند غيره ، وهم في العلم طبقات : منهم الجامع لأكثره وإن ذهب عليه بعضه ، والجامع لأقل مما جمع غيره ، فينفرد جملة العلماء بجميعها ، وهم درجات فيما وَعَوْا منها ، وكذا لسان العرب عند عامتها وخاصتها ، لا يذهب منه شيء عليها ولا يطلب عند غيرها ، ولا يعلمه إلا من قبله منها ، ولا يَشْرَكها فيه إلا من اتبعها في تعلُّمه منها ، ومن قبله منها فهو من أهل لسانها وعلْمُ أكثر اللسان في أكثر العرب أعم من علم أكثر السنن في أكثر العلماء مقدرة » .

وسبب آخر قوي وهام، هو : طبيعة اللغة وقابليتها للتشكيل وتصريف الكلام وتوجيهه على المعاني المختلفة(١) . هذا بالإضافة إلى أن الكلمة في اللغة العربية تختلف معناها باختلاف موضعها من الكلام ، وتختلف مدلولها باختلاف إعرابها وتصريفها(٢) ، واستعمالها وإعجامها ، من أمثلة ذلك :

قال الأصمعي(٣) أنشدنا أبو عمرو :

فما جَبُنُوا أنّا نَشُدُّ عليهمُ لِكنْ رَأَوْا ناراً تُحَشُّ وتُشْفَعُ

---

(١) فمثلا أهل البصرة يقولون جَنَازة وجِنَازة (بفتح الجيم وكسرها)جميعاً السرير وأهل بغداد يقولون جنازة بالفتح (الميت) وبالكسر السرير .

(المصون في الأدب ، ص ١٦٠) .

(٢) قال ابن فارس في فقه اللغة (باب الخطاب الذي يقع به الإفهام من القائل والفهم من السامع) : « يقع ذلك من المتخاطبين من وجهين أحدهما الإعراب ، والآخر التصريف ، فأما الإعراب : فيه تميز المعاني وتوقف على أغراض المتكلمين ، وأما التصريف : فإن من فاته علمه ، فاته المعظم ، لأنا نقول (وَجَدَ) وهي كلمة مبهمة ، فإذا صرفت أفصحت فقلت في المال وجداً ، وفي الضالة وجداناً وفي الغضب موجدة ، وفي الحزن وجداً .

(المزهر ١-١٩١ - ١٩٢) .

(٣) تحس : تمس وتشوى . نزهة الألباء ، ص ٢١ ، وانظر المزهر ٢-٢٣٠ .

قال : فذكرت ذلك لشعبة فقال : ويلك ؟ إنما هو : (تُحَسٌّ وتُسفع) أى تحرق وتسود . قال الأصمعى : قد أصاب أبو عمرو لأن معنى تحش توقد وقد أصاب شعبة أيضاً .

أضف إلى ذلك كله ما فيها من مترادفات كثيرة ، واستعمالات مجازية بعيدة ، ومقدرة العرب — بمساعدة اللغة لهم — على إبدال كلمة بأخرى مساوية لها فى الوزن والحروف ، قريبة منها فى النطق(١) كل هذه عوامل من نفس اللغة ساعدت على التصحيف والتحريف .

أما الأمور التى ساعدت على التصحيف ، ولم يكن للغة يد فيها ، فترجع إلى عوامل أخرى ، منها : مخالطة العرب لغيرهم من الأعاجم ، ومنها البعد عن السليقة العربية البدوية . أضف إلى ذلك أن العلماء حين ساحوا فى البيداء لجمع اللغة والشعر من القبائل الفصيحة المرابطة هناك كان هم كل منهم أن يسجل كل ما تلتقطه أذنه ، وما يخرج من أفواه العرب المشهود لهم بالمحافظة على لغتهم وفصاحتهم . وهم وإن سجلوا هذه المواد اللغوية حسب سماعهم لها ، فإنها كانت تروى لهم شفاها ، فقد ظل الأدب الجاهلى سنين طويلة حبيسا فى صدور الرواة ، يتناقله الرواة شفاها عن حفظهم لا عن كتاب مدون ، والحافظة كثيراً ما تخطىء وكثيرا ما تضع كلمة مكان كلمة متى استقام الوزن والمعنى ، فراو يغير كلمة ، وراو يغير أخرى ، وراو لا يغير ، والعلماء يروون عن رواة مختلفين ويسجلون عن مصادر متعددة فيأتى هذا الاختلاف .

كما أن العلماء حين رجعوا إلى مواطنهم وقواعدهم ، أخذوا يصنفون هذه الأشعار ومواد اللغة فى تصانيف خاصة ، وفى الوقت ذاته يملون ما جمعوه وما صنفوه على تلاميذهم فى المجالس والمنتديات والمساجد ، وكان لاختلاف المصادر أولا ، وتعددها ، وتناقلها أثر فى حدوث التصحيف .

هذا بالإضافة إلى أن العلماء كانوا يأخذون أحيانا عن صحف غير منقوطة

---

(١) رووا بيتاً من شعر الأعشى على عشرة أوجه .
أنظر شرح ما يقع فيه التصحيف ، ص ٢١٤ — ٢١٧ .

ولا مشكولة فيقرؤها كل حسبما يصح عنده معناها ، ويمعن الفكر فى تأويل المعنى على وفق ما قرأ(١) .

وسبب آخر هام .. وهو تعثر الناس بهذا الشعر الغريب العويص ، وبعدهم عن بيئته ، وانتمائهم إلى بيئة أخرى حضرية ، اختلفت الأساليب والأشعار فيها ، عن الشعر القديم ، ورقت معانيها وسهلت ألفاظها ، وقربت إلى الأذهان والأفهام . هذا البعد صعب عليهم النظر فى هذا الشعر القديم ، كما صعب نطقه وتذوقه ، مما جعلهم يضطربون فيصحفونه ويحرفونه عن أصل معناه ، مما أوجد الحاجة إلى شرحه وتقريبه . وذكر صحة روايته ومقصود معانيه .

على أن أهم الأسباب جميعا ترجع إلى أخطاء النساخ(٢) والكتاب الذين نسخوا هذه الأشعار والدواوين وحفظوها على المدى . وكانوا فى معظمهم معذورين لعدم وجود النقط من ناحية ، وربما لجهلهم بمعرفة حقيقة الألفاظ وصدق الرواية ، وصحة اللغة من جهة أخرى .. فهذه اسباب أخرى أدت إلى التصحيف والتحريف فلم تكن حركة الإعجام التى وضع أسسها قديماً

---

(١) ضحى الإسلام ٢-٢٧٣ .

يرى حمزة الأصبهانى (٣٥١ هـ) أن « سبب وقوع التصحيف فى كتابة العرب هو أن الذى أبدع صور حروفها لم يضعها على حكمة ولا احتاط لمن يجيء بعده ، وذلك أنه وضع خمسة أحرف صورة واحدة وهى : الباء والتاء والثاء والياء والنون ، وكان وجه الحكمة فيه أن يضع لكل حرف صورة مباينة للأخرى حتى يؤمن عليه التبديل » . (من كتاب التنبيه على حدوث التصحيف (مخطوط) نقلا عن كتاب لحن العامة للدكتور رمضان عبد التواب ، ص ١٨٢) .

(٢) كان نسخ المخطوطات هو الطريق العادى للحصول على نسخة من كتاب ما ، وكان الشخص ينسخ الكتاب بنفسه أو يستأجر من ينسخه له ، كما كان هناك نساخ ينسخون الكتب ثم يعرضونها للبيع ، وكان يحدث أن تقدم الكتب هدايا ، ولكن هذا لم يدم كثيراً بين الأفراد ، وإنما كثر أن يهدى العلماء نسخ من كتبهم أو مجموعات منها للمساجد والمدارس .

(أنظر ما كتبه الدكتور أحمد شلبى حول النسخ والنساخ فى كتابه تاريخ التربية الإسلامية ، صفحة ١٤٥ وما بعدها ، طبع دار الكشاف ، سنة ١٩٥٤ م .) .

« نصر بن عاصم » ومن تبعوه ، والتى سار عليها الناس من بعده بمانعة التصحيف(١) ، بل كان التصحيف والتحريف يقعان بين الناس حتى فى القرن الرابع الهجرى . يقول أبو أحمد العسكرى (٣٨٢ هـ) : « كان الناس فيما مضى يغلطون فى اليسير دون الكثير ، ويصحفون فى الدقيق دون الجليل ، لكثرة العلماء وعناية المتعلمين ، فذهبت العلماء ، وقلت العناية ، فصار ما يصحفون أكثر ما يصححون ، وما يسقطون أكثر مما يضبطون »(٢) .

ولم يقع التصحيف بين العامة فقط ، ولكن بين الخاصة أيضاً ، بل لعله العلة التى لم يسلم منها أحد حتى العلماء أنفسهم(٣) . تقول المصادر : أن الكثير من أهل الأدب وقعوا فى مصيدة التصحيف .. قال خلف الأحمر(٤) : أخذت على المفضل الضبّىّ فى يوم واحد تصحيف ثلاثة أبيات :

أنشد للأعشى :

ساعةً أكبر النهار كما شـ ـدّ محيل لَبُونه إعْتَاما(٥)

فقال « مُحيل » ، وإنما هو « مُخيل » : رأى خالاً من السحاب فخشى على بَهْمه أن تتفرق للمطر ، أو يُضَرّ بها فشدّها . وأكبر النهار : ضحى النهار يقول : كان صبرهم لنا ساعة بهذا المقدار ، لأنه يقول بعد هذا البيت :

ثم ولّوا بعد الحفيظة والصَّبـ ـر تطحّر الجنوبُ الجَهَاما(٦)

---

(١) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، ص ١٣ .

(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، ص ٥ .

(٣) اختلف مجموعة من العلماء حول اسم شاعر ، فأرسلوا إلى أربعة من العلماء ، فأجاب كل منهم بما يخالف الآخر . (أنظر شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، ص ٣٧٠) .

(٤) المصون فى الأدب ، لأبى أحمد العسكرى ، ص ١٩١ ، ١٩٢ ،
وانظر التصحيف والتحريف ، ص ٧٦ — ٧٧ .

(٥) ديوان الأعشى ، ص ١٧٤ .

(٦) طحرته : فرقته فى أقطار السماء .

قال : والبيت الثانى الذى صحف فيه بيت للمخبل السعدى :

وإذا ألَمَّ خيالُها طُرِقَتْ عينى فماءُ شؤونها سَجْمُ

وإنما هو « طُرِقَتْ » .. وروى بيت امرىء القيس :

نمسُّ بأعراف الجيادِ أكُفَّنا إذا نحن قمنا عن شواءٍ مضَّهبِ

وإنما هو « نَمُشُّ » ، والمش : مسح اليد بشىء يقشر الدسم ، ويقال للمنديل مشوش .

ولقد فضح بالتصحيف خلق كثير — أدباء وعلماء(١) وقضاة ورؤساء ، ومنهم من هجرا به ، وبقى ذمهم مخلدا فى بطون الكتب(٢) .

ذلك أن الاحتراس منه « لا يدرك إلا بعلم غزير ، ورواية كثيرة ، وفهم كبير بمعرفة مقدمات الكلام ، وما يصلح أن يأتى بعدها مما يشاكلها وما يستحيل مُضَامَّته لها ، ومقارنته بها ، ويمتنع من وقوعه بعدها ، وتمييز هذ مستصعب عسر إلا على أهله الحاملين لثقله والمستعذبين لمرارته »(٣) .

كل هذه أمور حفزت العلماء من أجل الحفاظ على سلامة اللغة وحمايتها من الشوائب والعناصر الضارة التى قد تضعفها ، فساروا إلى غايتهم فى مسارين يكمل كل منهما الآخر .

الأول : إبراز التصحيف عمليا ، بتحديده وتبيين مكانه .

الثانى : معالجته علميا ، بشرح حقيقة اللفظ الذى وقع فيه التصحيف وتوضيح مدلوله وتقديم الشواهد الممكنة من أشعار العرب وأقوالهم على صحة هذا التدليل .

---

(١) قال الإمام أحمد بن حنبل : « ومن يعرى من الخطأ والتصحيف ؟ .. » .
(المزهر ٢-٢٢٢) .

(٢) أنظر شرح ما يقع من التصحيف ، ص ١٣ وما بعدها ،
وأنظر تصحيفات للعلماء فى المزهر ٢-٢٢٣ وما بعدها .

(٣) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، ص ١ .

وقد لازمت هذه العماية اللغة والأدب منذ جمعها عن أعراب البادية ، وأثناء حركة الرواية والتدوين ، فكان صدق التحرى هدف العلماء ، ودقة الأخذ غايتهم ، لذلك دونوا لأنفسهم ملاحظات دقيقة عابرة لترجيح رواية على أخرى ، أو لفظة على لفظة ، مما يصادفنا كثيراً فى دواوين الشعر المختلفة(١) . وكان هذا الاهتمام يحقق بالضرورة نزعاتهم وأهدافهم من أجل تصويب اللغة والأشعار ، لتوضيح مواطن الخطأ والزلل ، وإرشاد الكاتبين والقارئين على السواء إلى هذه الأخطاء اللغوية التى وقعت فى الألفاظ والأسماء المشكلة ، التى تتشابه فى صور الخط فيقع فيها التصحيف ويدخلها التحريف ، كما اعرضوا لما وقع فى أسماء الشعراء وأيام العرب ، وأسماء فرسانها ووقائعها وأماكنها ، وما يعرض فى علم الأنساب وغيرها من الأشكال ، فيصحفها عامة الناس ، ويغلط فيها بعض الخاصة(٢) .

على أن معرفة التصحيف — وتعليل أسبابه وشرحه — موهبة لم تكن متوفرة عند كل العلماء ، فلم يتصد له إلا من حذق أمورا ، وتفنن فى علوم واشتمل على ميزات ، حتى يكون جديرا بالأستاذية فى خضم هذا العلم ، فعلاوة على معرفته الواسعة باللغة وتصاريفها ونحوها ، وحفظه الواسع لأشعار العرب ، لابد وأن يكون « مفتنا فى العلوم ، ولقى العلماء والرواة ، المتقدمين فى صناعتهم ، المتقنين لما حفظوه ، وأخذ من أفواه الرجال ، ولم يعول على الكتب الصحفية ، واستقبح لذة الراحة والتقليد على تعب البحث والتنقير ، فوضحت له الدراية والرواية ، بكفء الطلب والعناية ، واحترس من الخطأ ، احتراسه من أقبح العيوب ، وأُعين ببعض الذكاء والفطنة »(٣) .

---

(١) قال ثعلب : « حدثنى أصحابنا أن أبا عمرو بن العلاء كان يقول : ربما لا أعرف حقيقة الحرف أو حقيقة بيت الشعر ، وأود أنى ضربت مقرعة وعرفته » .
(شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، ص ٢١٤) .

(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف ، مقدمة المحقق .

(٣) شرح ما يقع فيه التصحيف ، ص ١ : « وقد مدح بذلك علماء كثيرون منهم خلف الأحمر الذى كان يهجو التصحيف والمصحفين ويتبع هناتهم وهفواتهم .
(أنظر نفس المرجع ، ص ١٩) .

فشرح التصحيف كان صورة من الصور العلمية الهامة التى وجهتها الحركة العلمية للمحافظة على اللغة العربية ، والتى استهدفت بالضرورة تصويب لغة الشعر وتحقيق روايته ثم تقديمه إلى الناس صحيحاً مذللادون لبس أو غموض ، اعتمادا على لقاء العلماء ، وسعة الاطلاع ووفرة المحصول الشعرى . على أن نشاط العلماء لم يتوقف عند تحديد التصحيف ، وتحقيق الدقة فى الرواية وشرح صحته فحسب ، بل لقد استدرك الكثير منهم على بعضهم تصحيفاتهم فى رواياتهم ، وكأن ذلك بدع أو سنة فى أن يحاول كل منهم إثبات صحة بيت أو لفظة وتحديد معناها .. وقد ينسبها إلى بيئة لغوية معينة . قال أحمد بن يحيى ثعلب(١) : حدثنا أحمد بن سعيد بن سلم ، قال : رأيت الأصمعى وأبا عمرو الشيبانى ، عند أبى فى هذه النيمخايجة (٢) — وأشار إلى نيمخايجة فى داره — فتناظموا وتناشدوا ، فأنشد الأصمعى :

عَنَتاً باطِلاً وظلماً كما تُعْـ ... ـتَزُّ عن حَجرةِ الرَّبيضِ الظباءُ

فقال أبو عمرو : صَحَّفْتَ ، أنما هو « تُعْتِرُّ » من العتيرة .

فصاح الأصمعى وجلب وقال : « تُعْتَنَزُ » تضرب بالعَنَزَة .

فقال له أبو عمرو : دع هذا عنك ، فوالله لا تُنْشِدَ بعدوقتك أبداً إلا كما قلت » .

ولم يقف استدراك العلماء على بعضهم عند رواية الأبيات فقط ،

---

(١) المصون فى الأدب لأبى أحمد العسكرى ، ص ١٩٣ — ١٩٤ . وانظر شرح ما يقع فيه التصحيف ، ص ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١٠١ ، ١٠٨ ؛ والمزهر ٢-٢٢٣ ، ٢٢٥ ، وصفحة ٢٢٨ .

(٢) النيمخايجة : هى فى الفارسية (نيم خايه) بمعنى القبة أو القبوة ، ويزاد المقطع (جه) فى الفارسية للدلالة على التصغير ، كما يقال فى باغ : باغجه بمعنى حديقة صغيرة ، وكما يقال (دريا) بمعنى « البحر » و (درياجه) بمعنى « بحيرة » .

(أنظر القواعد الأساسية للشواربى ، ص ٢١٩ ، والتصحيف والتحريف للعسكرى ص ٥٤ وانظر المصون فى الأدب ، ص ١٦٣) . و« العتيرة » ذبيحة كانوا فى الجاهلية يذبحونها عن الغنم إذا كثرت للأصنام .

بل لقد رأينا منهم من يستدرك على معاصريه وسابقيه تصحيفاتهم فى مؤلفاتهم ومصنفاتهم وشروحهم . فمثلا نرى أبا بكر الزبيدى اللغوى مؤلف « مختصر كتاب العين » يستدرك على الخليل بن أحمد بعض تصحيفاته ، وكذلك فعل ابن دريد ، ونرى الجوهرى يستدرك على الأصمعى بعض روايته فى الصحاح وفى الجمهرة ، كما نرى فى أمالى الزجاج وأمالى القالى استدراكات مشابهة ، وفى كتاب التهذيب للأزهرى ، وكتاب المجمل لابن فارس ، وشرح المعلقات لأبى جعفر النحاس أمثلة لهذه الملاحظات أو التعقيبات ، وما أكثر ما نعثر عليه من إشارات أو نصوص مدونة هنا وهناك كلها ينبىء عن تصحيف أو تحريف (١) .

غير أن التأليف فيما يتصل بالتصحيف ، لم يكن منتشرا أو معروفا كفن مستقل ، لقلة الذين أهلتهم ظروفهم وثقافتهم للنهوض بعبء هذا العمل أو الإبداع فيه ، فلم يكن يثير اهتمام العالم إلا أن يذكر ملاحظاته حول صحة اللفظ أو رواية البيت ويعلل لذلك ، وقد يشرح حالاته المختلفة أو تأويلاته المحتملة ، وقد لا يشرح ، ولكن دون أن يفرد لذلك كتابا خاصا . لذلك تأخر التأليف فى مجال التصحيف عن الفنون الأخرى ، التى تتصل باللغة والأدب ، فيبدو أن أول مصنف منه لم ير النور إلا فى القرن الرابع (٢) ، عند أبى القاسم على بن حمزة الأصفهانى (المتوفى سنة ٣٥١ هـ) الذى ألف كتابا يتعقب فيه أغلاط جماعة من الرواة ، سماه « التنبيهات على أغاليط الرواة »(٣) .

ثم تابعه فى التأليف أبو أحمد العسكرى (المتوفى سنة ٣٨٢ هـ) حيث

---

(١) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف المقدمة ، صفحة (ى) .

(٢) يقول السيوطى فى باب « معرفة التصحيف والتحريف » : « أفرده بالتصنيف جماعة من الأئمة منهم العسكرى والدارقطنى » ولم يذكر سواهما (المزهر ٢-٢٢٢) .

(٣) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، الصفحة (ك) .

وضع كتابا سماه : « شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف »(١) ، وقد قسمه قسمين : تعقب فى القسم الأول منه تصحيفات المحدثين(٢) . أما القسم الثانى فقد جعله فى تصحيفات أهل اللغة والأدب على السواء(٣) .

وكان ثالثهم على بن عمر الدارقطنى(٤) (المتوفى سنة ٣٨٥ هـ) ،حيث أفرد مجلدا تعقب فيه تصحيفات المحدثين .

وخلاصة ما يمكن أن يقال أن ظهور التصحيف ثم استفحال أمره — فى القرن الرابع — كان سببا من الأسباب الهامة التى تطلبت من العلماء معالجته والعناية بشرحه لإرشاد الباحثين إلى صحة الروايات ، وسلامة الأشعار التى تنوقلت بها أشعار القدماء بعد أن تعاقبت القرون ، ومرت السنون ، على زمن الشعر ، وتباعدت المسافات وتباينت البيئات ، وأصبح القوم ينظرون إلى هذا الشعر نظرتهم إلى كل مقدس ، يجب صيانته والحفاظ عليه وكان ذلك كله امتداداً لحركة التنقية اللغوية التى كانت تهدف إلى سلامة اللغة ، وصيانتها من الخطأ ، وتخليصها فى التصحيف والتحريف .

ولقد كان لشرح التصحيف أثر كبير فى حياة اللغة والشعر جميعاً .

---

(١) ذكره السيوطى فى المزهر ٢-٢٢٢ ، والأصل المخطوط لهذا الكتاب يقع فى مجلدين ، ويشتمل المجلد الأول منه على جزءين ، الأول والثانى فى ١٩٢ ورقة ، أما المجلد الثانى فيحتوى على الجزء الثالث ويقع فى ٥٠ ورقة . والكتاب بأقسامه محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٩٤ — أدب) ، وقد طبع الجزء الأول منه بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٠٨ م ، ويقع فى ١١٣ صفحة . وهذا المخطوط هو الأصل الوحيد فى مكتبات العالم .

(٢) هذا القسم لا يزال مخطوطاً تحت الرقم السابق ذكره .

(٣) طبع هذا القسم بتحقيق الأستاذ عبد العزيز أحمد فى مطبعة مصطفى الحلبى بالقاهرة سنة ١٩٦٣ م .

(٤) ذكره السيوطى فى المزهر ٢-٢٢٢ . ولم نعثر على هذا الكتاب ، ولم نجد له أصلا أو ذكراً فى فهارس المكتبات العامة ، ويبدو أنه كان خاصاً بالتصحيف فى الحديث لأن الدارقطنى كان إماماً من أئمة الحديث فى عصره .

(أنظر وفيات الأعيان ٣-٤٧٧ ، الأنساب ص ٣٥٧ ، والمنتظم ٦-٣٦٠ ، تاريخ أبى الفداء ٢-٩٦

ذلك أنه يقدم لنا مادة علمية غزيرة ، وذخيرة لغوية هامة ، ومرجعا أمينا يعتمد عليه فى تصويب الكثير من الكلمات اللغوية ، وتصحيح العديد من الروايات الشعرية .

وهدف آخر يقدمه لنا شرح التصحيف .. ذلك أنه يفسر لنا الاضطراب الذى نحسه عند مراجعة المعاجم الكبيرة للبحث عن معنى كلمة غريبة فى بيت من الشعر ، فإذا بالبيت مذكور فى أكثر من مادة شاهداً على معنى بعض المفردات اللغوية الواردة فيه ، ويدهشنا أن نرى الكلمة المقصودة بالبحث قد رويت برواية أخرى ، ولكن عجبنا يزول عندما ندرك ألا تعدد فى الرواية وإنما هو تصحيف لكلمة أشكل أمرها على الرواة ، ونقلها أصحاب المعاجم على أنها رواية أخرى(١) .

٧ — غاية تعليمية :

حين أخذ علماء حركة التنقية اللغوية على عاتقهم تقويم الألسنة ، وترقية الأذواق ، بوضع النماذج العربية المثلى من الفن الرفيع أمام الشعراء ، وتقريبها إلى الجمهور الأدبى .. كان صنيعهم هذا يحقق « غاية تعليمية » ، ويلبى « حاجة ثقافية » ، قصدوا بالأولى تنشيط الأذهان ، وتدريب ملكة اللسان ، وتمرين الشعراء على محاكاتها فى ألفاظها ومعانيها ، ومتانة نسجها وقوافيها ، وتوخوا من الثانية : إشباع الرغبة الفنية التذوقية لدى الجمهور الأدبى ، المتابع للتيارات الأدبية والثقافية فى المجالات المختلفة ، وتقريب هذه النماذج الفنية التى أبدعها الأقدمون إليه ، بتفسير ألفاظها ومعانيها ، وتوضيح مناسباتها وأحداثها .

بدأ هذا النشاط منذ العصر الأموى — الذى يعتبر فى نظر أكثر الباحثين(٢)

---

(١) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، الصفحة « ك » .

(٢) الدكتور شوقى ضيف ، التطور والتجديد فى الشعر الأموى ، ص ٩١ .

« ليس معنى ذلك أننا نغفل البدايات التعليمية التى نشأت منذ فجر الإسلام ، على أيدى الصحابة والتابعين ، ولكننا نقصد التعليم المنظم الذى يتصل باللغة والأدب ، والذى دعت إليه الحاجة الثقافية التى نشأت نتيجة للفتح الإسلامى والتوسع الحضارى . »

بداية عصر الدرس والتعليم ، ففيه انبثقت حركات تعليمية منهجية منظمة ، على رأسها « الحركة الدينية » التى عنيت بتفسير القرآن الكريم ، ورواية الحديث الشريف ، كما عنيت بوضع قواعد الفقه الإسلامى ، الذى لم يقف به أصحابه عند أمور العبادات الدينية ، بل وسعوه ليشمل كل فروع الحياة المدنية(١) وصاحبت الحركة التعليمية الدينية ، حركة أخرى ، تعليمية أيضاً .. لغوية أدبية عمادها الشعر الجاهلى ، تنهج على نهجه ، وتتمثله فى كل صوره وآثاره تراثاً حيا راقيا ، ومثلا أعلى يحتذى فى متانة الألفاظ ، وقوة المعانى ، وفصاحة اللغة ، بعد أن نشأت الحاجة إلى دراسة اللغة العربية — لا على أنها متعة أدبية فحسب بل للحاجة إليها فى تقويم الألسنة ، وتعليم الجمهور الأدبى ، وتقديم النماذج الفنية له .

لقد أخذ الناس يدرسون ويبحثون ، وكان الأدب(٢) فى مفهومهم : تفهما ودراسة لنماذج الأدب الرفيعة الموروثة بكل عناصرها وأبعادها وخصائصها لذلك أخذوا يتلمسون فى التراث الشعرى القديم كل مكرمة ، وفى ألفاظه ومعانيه كل غاية ، ينشدونه ويتعلمونه ، ويصدرون على منواله ، ومن ثم أخذ الشعر فى بعض جوانبه أو قصائده يعبر لا عن حاجة وجدانية ، وإنما عن حاجة لغوية(٣) . لذلك نرى الشعراء الأمويين أنفسهم ينظمون الأشعار ، ويؤلفون المتون اللغوية ، التى تعين الجمهور الأدبى وطلاب العلم على ذلك ، وقد تمثلوا تراثهم القديم ، وحاكوا نماذجه وأشكاله ، فظهر فى شعرهم جانب تعليمى يتصل باللغة العربية الفصيحة ونحوها وصرفها .. من هؤلاء الشعراء الطِّرِمَّاح(٤) ، والكُمَيْتُ (٥) وأمثالهما ، الذين كان لهم نشاط لغوى وفنى كبير

---

(١) أنظر فصل الحياة العقلية فى كتاب التطور التجديد فى الشعر الأموى ، ص ٧٧ وما بعدها .

(٢) كانت علوم الأدب فى رأيهم — كما ذكرها ابن الأنبارى — ثمانية : النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافى ، وصنعة الشعر ، وأخبار العرب ، وأنسابهم .
(نزهة الألباء ، ترجمة هشام الكلبى ، ص ٦١) .

(٣) التطور والتجديد فى الشعر الأموى ، ص ٩١ .

(٤) كان الطرماح مؤدباً للصبيان فى الكوفة والرى (أنظر البيان والتبيين ٢-٣٢٣) .

(٥) وكان الكميت من المؤدبين المعلمين (أنظر الشعر والشعراء ، ص ٣٦٨) .

يخدم هذه الغاية ، ويفى باحتياجاتها ، « فمن يرجع إلى ديوان الطِّرِمّاح يستطيع أن يلاحظ فى وضوح أن شعره يمكن أن يقسم قسمين ، قسم واضح ، فيه مديح وهجاء . وقسم غير واضح ، فيه حديث عن الصحراء ، وكل ما يتصل بها ، وهو شعر أريد به قبل كل شىء إلى تعليم اللغة بغرائبها وأوابدها »(١)

وما هذا الشعر الغريب ، المؤلف خصيصاً إلا شعر تعليمى ، قصد به تسهيل مهمة العلماء ، وتقديم مادة لهم يستخلصون منها ما هم بصدد بحثه ودراسته وتعليمه .

على أن طبقة المقصِّدين من أمثال الطرماح والكميت لم تبلغ فى هذا الباب من التعليم اللغوى ما بلغته طبقة الرجاز من أمثال رؤبة ، فمن يتعقب أخبارهم فى كتب الأدب ، يلاحظ أن من أهم غاياتهم فى شعرهم ، خدمة اللغة والمؤدبين أو اللغويين القائمين عليها بما يمدونهم به من الشواذ والشوارد ، بحيث أصبحت بعض أراجيزهم كأنها متون لغوية للحفظ والتسميع (٢) .

ولم يكن الشعراء وحدهم هم الذين يبذلون جهدهم من أجل هذه الغاية ، بل « كان يشركهم فى ذلك طائفتان من المعلمين أخذوا فى الظهور مع أواخر القرن الأول للهجرة ، وأوائل الثانى ، وهما : طائفة المتكلمين الذين كانوا يعنون بتعليم الشباب فن الخطابة والمناظرة ، ثم طائفة اللغويين والنحويين ، وكانوا يحترفون تعليم اللغة ومقاييسها فى الاشتقاق والإعراب ، مضيفين إلى ذلك رواية واسعة للشعر القديم ، ولم يكونوا يكتفون بالرواية وحدها ، فقد عنوا أشد العناية بشرح ما يروون ودرسه ، وتبيين خصائصه التعبيرية والأسلوبية »(٣) .

ويبدو أن حب الغريب والنادر من الألفاظ كان دَيْدَن المعلمين والعلماء على السواء ، بل لقد كان العصر كله مهتما أشد الاهتمام باللغة وعناصرها

---

(١) التطور والتجديد فى الشعر الأموى ، ص ٩١ .

(٢) التطور التجديد فى الشعر الأموى ، ص ٩١ .

(٣) البلاغة تطور وتجديد ، للدكتور شوقى ضيف ، ص ٢٨ .

ومظاهرها . وقد دفعهم هذا الاهتمام إلى أن يسلكوا مسلكين معاً ، الأول : إرشاد الجمهور الأدبي وطلاب العلم إلى منابع اللغة وأمهات القصيد ، وتحديد مواطنها .. فنراهم يقولون : « من أراد الغريب فعليه بشعر هُذَيْل ورجز رؤبة والعجاج ، وهؤلاء في شعرهم الغريب والمعاني . ومن أراد الغريب الشديد الثقة ففي شعر ابن مقبل ، وابن أحمر ، وحُمَيد بن ثور الهلالي ، والراعي ، ومزاحم العقيلي . ومن أراد النسيب والغزل من شعر العرب الصلب ، فعليه بأشعار عذرة والأنصار : « ومن أراد طرف الشعر وما يحتاج إلى مثله عند محاورة الناس وكلامهم ، فذلك في شعر الفرسان »(١) .

أما المسلك الثاني ، فهو تفسير هذا الغريب والنادر من الأشعار وإبراز مواطن الجمال والقوة في أساليب العرب القدماء ، معللين مفسِّرين ، لسد الحاجة الثقافية ، واستيفاء الغاية التعليمية ، وهذا ما أخذه العلماء على عاتقهم حين تصدروا في مجالسهم للشرح والتفسير ، والتحليل والتأويل .

ولسنا الآن بصدد دراسة نشأة الحركة التعليمية وتتبع تطورها ، منذ مرحلها الأولى في الكتاتيب(٢) ، أو تتبع المناهج التي اختطها الخبراء الحريصون على تنشئة الأجيال المتعلمة المثقفة — ولكن حسبنا أن نلقي الضوء على المرحلة التي تليها التي تتصل إتصالا مباشراً ووثيقا برواية الشعر القديم ودراسته وشرحه في الأماكن التي كانت مسرحا لبذل العلم وتفسيره — كالمساجد وغيرها — وتلك مرحلة تلي المرحلة الكُتَّابية ، حيث ينتقل تلميذ الكُتَّاب إلى مستوى طالب العلم بمعناه الرفيع (٣) .

---

(١) أبو أحمد العسكري ، المصون في الأدب ، ص ١٧٣ .

(٢) أنظر ما كتبه الأستاذ أحمد أمين عن هذا الموضوع في كتابه « ضحى الإسلام » ، ص ٥٠٢ وما بعدها . وانظر أيضاً تاريخ التربية الإسلامية للدكتور أحمد شلبي ص ٢٠ وما بعدها .

(٣) روى عن الشافعي أنه قال : « كنت يتيماً في حجر أمي فدفعتني في الكتاب ، ولم يكن عندها ما تعطي المعلم ، فكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام ، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد ، فكنت أجالس العلماء ، وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها » .
(جامع بيان العلم ١-٩٨) .

مجالس العلم

قامت مجالس العلم المختلفة — فى أماكن عدة — وكان قيامها استجابة لحاجة القوم الدينية والثقافية والتعليمية ، واقتضى ذلك التوسل باللغة العربية الفصيحة ، والاعتماد عليها استيفاء لهذه الحاجة ، لفهم تعاليم الدين وأصوله ، وتفسير دستوره ، حيث جلس المتأدبون وطالبو العلم إلى شيوخهم من القراء والمفسرين والمحدثين ، يأخذون منهم ، ويُدَوِّنُون عنهم ، وبين ثنايا ذلك يستعمون إلى رواية الأشعار وتفسيرها ، نظراً لما هم بصدد دراسته وبحثه من علوم القرآن أو الحديث ، وما تقتضيه المناسبة من تفسير ألفاظ ومعان يأتى بها الاستطراد وتقليب الموضوعات ، ويحتاج فيها إلى التماس الشواهد من لغة العرب الخلص وأشعارهم ، فقد كانت شروح الشعر — بعناصرها المختلفة — تتخلل حلقات العلم على تباين تخصصاتها وتعدد مناهجها ، قبل أن تستقل هذه الشروح عن غيرها من العلوم ، وتصبح فناً قائماً بذاته .

وتكاد تتخذ هذه المجالس كلها مظهراً واحدا — خاصة فى المراحل الأولى وهو تفسير المفردات والعبارات التى غمت على الجمهور ، بعد أن أَمَّ هذه المجالس جمهور كبير ، عرب وغير عرب ، بعضهم يلتمس ما يتصل بالدين لغاية روحية ، وغيرهم يلتمس فنون القول بأنواعها المتعددة لغاية فنية ، ولم يكن كل ما يقال يفهم ، وليس كل ما يعرض يلقى قبولا .. حينئذ ألحت الحاجة فى طلب الشروح والتفاسير لما يقال ، وما يطرح للبحث وما يروى أو ينشد من الشعر ، واستجابة لهذه الغايات التطلعية ، وتلبية للحاجات الثقافية والتعليمية ، زادت عناية العلماء بالشروح ، وتنوعت اهتماماتهم على النحو الذى نجده مبثوثا فى المصادر الأدبية واللغوية القديمة .

المساجد :

كان من أوائل الأماكن التى يلتمس فيها ذلك « المساجد »(١) حيث كانت أشبه بساحات كبرى لبذل العلم ، فيها ينشر العلماء علمهم ، ويلقون طلابهم ، ويتحلق الجمهور حولهم ، فلم تكن المساجد دور عبادة(٢) فحسب ، بل كانت أكبر معاهد الدراسة والتعليم طيلة القرون الأربعة الأولى تقريبا . وتشير المصادر الأدبية القديمة ، إلى أن الحلقات العلمية والتعليمية بالمساجد ، تعددت لتشمل علوماً متنوعة ، دينية وغير دينية ، وكان لكل حلقة مريدوها ، المهتمون بها ، فحلقة لمحدث ، وثانية لمفقه ، وثالثة لمفسر ، ورابعة لراوية أو إخبارى ، وخامسة للغوى أو نحوى ، يتحلق فيها طلاب العلم ، وهواة الأدب ، ومحبو الثقافة ، حول الأساتذة ، يكتبون ما يسمعونه منهم ، وما يملونه عليهم .. فقد كان « الإملاء » أعلى مراتب التعليم ، وأعلى وظائف الأستاذ المتمكن الحافظ (٣) .

---

(١) ينظر فى هذا الموضوع ما كتبه كل من :

– الأستاذ أحمد أمين ، عن معاهد العلم فى العصر العباسى ، فى كتابه « ضحى الإسلام » ٢ـ٥٠ وما بعدها .

– والأستاذ الدكتور شوقى ضيف ، عن الحركة العلمية فى العصر العباسى ، فى كتابه « العصر العباسى » ، ص ٩٨ وما بعدها .

– والأستاذ الدكتور أحمد شلبى ، عن التعليم فى المساجد ، فى كتابه « تاريخ التربية الإسلامية ص ٨٨ وما بعدها .

(٢) كانت المساجد إلى جانب كونها دور عبادة ، أماكن للاعتكاف ، ودوراً للقضاء ، وساحات تتجمع فيها الجيوش ، ومنازل لاستقبال السفراء وغير ذلك .

(أنظر دائرة المعارف الإسلامية ، مادة : مسجد) .

(٣) عقد السيوطى لهذا الموضوع فصلا قال فيه : « وظائف الحافظ فى اللغة أربعة : أحدها وهى العليا : الإملاء (ثم يورد المُمْلِى بإسناده كلاماً عن العرب والفصحاء فيه غريب يحتاج إلى التفسير ثم يفسره) .. والوظيفة الثانية : الإفتاء فى اللغة .. والوظيفة الثالثة والرابعة : الرواية والتعليم .. ومن آدابها الإخلاص ، وأن يقصد بذلك نشر العلم وإحياءه ، والصدق فى الرواية والتحرى والنصح فى التعليم ، والاقتصار على القدر الذى تحمله طاقة المتعلم .

(المزهر للسيوطى ٢ـ١٩٩ – ٢٠٨ باختصار) .

وبعد الإملاء يسألون الأستاذ عما يعن لهم ، وما يحتاجون إلى تفسيره ، ويسجلون الملاحظات والشروح والآراء على هوامش محاضراتهم ..

وكانت حلقات اللغويين والنحويين ورواة الشعر وشراحه تستهوى القوم وتلقى كبير اهتمام (١) وعظيم شغف منهم ، فيذكرون أن ابن الأعرابى — وهو ممن وسم بالتعليم (٢) — كان يحضر حلقته زهاء مائة شخص (٣) .

وتفيض المصادر القديمة بذكر الأخبار الكثيرة عن مجالس اللغويين والنحاة والأدباء ورواة الشعر ، وما دار فيها من مناظرات ومناقشات ، وتحليل للموضوعات وسرد للآراء .. من ذلك :

مجلس الكسائى (١٨٩ هـ) فى مسجد المنصور (٤) .

ومجلس أبى عبيدة (٢١٠ هـ) فى مسجد البصرة (٥) .

ومجلس نفطويه (٣٢٣ هـ) فى مسجد الأنباريين (٦) .

ومجلس الصولى (٣٣٦ هـ) فى مسجد بغداد ثم واسط (٧)

---

(١) قال ياقوت : « كان حماد بن سلمة بن دينار يمر بالحسن البصرى فى الجامع فيدعه ويذهب إلى أصحاب العربية يتعلم منهم » (معجم الأدباء ٤-١٣٥) .

(٢) بغية الوعاة ، ص ٤٢ .

(٣) أنباه الرواه ٣-١٣٠ (دار الكتب) ، ومعجم الأدباء ١٨-١٨٩ .

(٤) قال الأخفش : « وردت بغداد فرأيت مسجد الكسائى (لعله يريد مكانه فى المسجد) فصليت خلفه الغداة فلما انفتل من صلاته ، وقعد وبين يديه الفراء والأحمر وابن سعدان سلمت وسألته عن مائة مسألة ، فأجاب بجوابات خطأته فى جميعها » .

(أنظر معجم الأدباء ٤-٢٤٣) .

(٥) الأغانى ١٨-٧٩ (سامى) يقول أبو محمد اليزيدى : « كان أبو عبيدة يجلس فى مسجد البصرة . إلى سارية ، وكنت أنا وخلف الأحمر نجلس جميعاً إلى أخرى .. » .

(٦) الفهرست ، ص ١٢١ .

(٧) ذكر الصولى أن وزير المتقى بالله أراد أن يمنعه من الجلوس للناس فى المسجد .

(أخبار المتقى لله ، ص ٢١٥ ، وانظر أيضاً ، ص ١٩٤) .

ومجلس أبي عمر الزاهد (٣٤٥ هـ) فى مسجد المنصور (١) .

ومجلس الخطيب البغدادى (٤٦٣ هـ) فى المسجد الأموى بدمشق (٢) .

كما تتحدث عن أماليهم(٣) الغزيرة التى سجلتها أقلام تلاميذهم . يقول السيوطى : « أملى حفاظ اللغة من المتقدمين الكثير ، فأملى ثعلب مجالس عديدة فى مجلد ضخم ، وأملى ابن دريد مجالس كثيرة رأيت منها مجلداً ، وأملى أبو محمد القاسم بن الأنبارى وولده أبو بكر ما لايحصى ، وأملى أبو على القالى خمسة مجلدات .. وآخر من علمته أملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجى (٣٣٩ هـ) له أمالى كثيرة فى مجلد ضخم ، ولم أقف على أمالى لأحد غيره (٤)»

واتسعت المساجد أيضا لينعقد فيها حلقات للشعراء ، ينشدون فيها أشعارهم (٥) حدث شيخ من أهل الكوفة أنه دخل مسجد المنصور ، فإذا شيخ عليه جماعة وهو ينشد :

---

(١) فى مسجد المنصور أملى أبو عمر الزاهد كتابه « الياقوت » وقد بدأ يحاضر فى موضوع ذلك الكتاب ويفسر غوامضه فى شهر المحرم سنة ٣٢٦ هـ ، ولما أتمه استعاد تراءته فهذبه وزاد عليه . (الفهرست ، ص ١١٣)

(٢) معجم الأدباء ٢٥٥.١ ، وانظر ما ذكره ابن جبير عن الجامع الأموى بدمشق وعلاقته بالتعليم فى كتابه الرحلة ، ص ٢٦٦ وما بعدها ، طبع ليدن سنة ١٩٠٧ م .

(٣) طبع من هذه الأمالى :

— أمالى اليزيدى (٢٠٢ هـ) ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، سنة ١٣٦٧ هـ .

— أمالى الزجاجى (٣٣٩ هـ) بتحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة المدنى بالقاهرة ١٣٨٢ هـ .

— أمالى القالى (٣٥٦ هـ) ، طبع دار الكتب ، سنة ١٣٤٢ هـ .

— أمالى المرتضى (٤٣٦ هـ) بتحقيق محمد أبو الفضل ، القاهرة ، سنة ١٩٥٤ م .

— أمالى ابن الشجرى (٥٤٢ هـ) ، حيدر أباد ، الهند ، سنة ١٣٤٩ هـ .

وكان للصولى أمالى كثيرة — يقول السمعانى : « وكتبت جزئين من أماليه الحسنة عن شيخنا أبى منصور الجواليقى ببغداد » (أنظر الأنساب ، ص ٣٥٨) .

(٤) المزهر ١٩٩.٢ .

(٥) معروف أن النبى — صلى الله عليه وسلم — لم ينه عن إنشاد الشعر فى المسجد ، حتى ما كان فيه غزل ، فإن كعب بن زهير دخل على النبى — صلى الله عليه وسلم — قبل صلاة الصبح فمثل بين يديه وأنشد قصيدته المعروفة :

« بانت سعاد فقلبى اليوم متبول »

(أنظر العقد الفريد ١٢٦.٣ ، والمصون فى الأدب ، ص ٢٠٠ وما بعدها) .

لهفي على وَرَق الشباب وغصونه الخُضْرِ الرِّطابِ
ذهب الشباب وبان عنّي غيرَ منتظر الإياب
فلأبكين على الشبا ب وطيب أيام التصابي
ولأبكينّ من البلى ولأبكيَنّ من الخضابِ

وكان ينشدها ودموعه تسيل على خديه ، فلما رأى الكوفى ذلك انضم إلى الحلقة وكتب الأبيات ، وسأل عن الشيخ ، فعرف أنه أبو العتاهية(١) .

وفى مسجد البصرة كان يجلس مسلم بن الوليد ليملى شعره ، وفى أحد مجالسه وبينما هو يملى بداليته :

لا تدع بى الشوق أنى غير معمود

أقبل أبو نواس ، فاستشرف له القوم ، فدنا فسلم ؛ فقطع مسلم الإملاء ورفعه فى المجلس ، وأقبل عليه يسأله أن ينشده من شعره ، وأبو نواس يأبى ذلك ، ثم سأله أبو نواس أن يبدأ القصيدة من أولها فقَبِلَ (٢) .

ولا شك أن الشاعر — وهو مبدع الفن — كان عليه حين يملى شعره ، أن يفسر ما قد يكون غامضاً على القوم ، كما يجيب على التساؤلات والاستفسارات التى كان يوجهها إليه القوم حول معنى بيت ، أو مقصود لفظه أو مناسبة قصيدة .. إلى غير ذلك من الأمور التى تدور فى أذهان سامعيه .

ومن هنا كانت حلقات الشعراء تجمع إلى جانب المتعة الفنية الغاية التعليمية .

وفى المسجد أيضا وجدت حلقات لمذاكرة الشعر ونقده وتحليله ، مع ما يتبع ذلك من مناقشات وتعليلات ، وشروح وتوضيحات . روى الأصفهانى

---

(١) الأغانى ٤-٤٦ (دار الكتب) ، ٣-١٤٨ (طبعة ساسى) .
(٢) الموشح ، ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .
ويذكرون أنه فى سنة ٢٥٣ هـ رحل الطبرى إلى مصر وأملى فى مسجد عمرو بن العاص شعر الطرماح عند بيت المال فى الجامع و(معجم الأدباء ٦-٤٣٢) . كما أملى الأثرم شعر الراعى فى أحد مجالسه (نزهة الألباء ، ص ١١٢ — ١١٣) .

فى أغانيه : « أن الكميت بن زيد وحمادا الرواية اجتمعا فى مسجد الكوفة ، فتذاكر أشعار العرب وأيامهم ، فخالفه حماد فى شيء ونازعه ، فقال له الكميت : أتظن أنك أعلم منى بأيام العرب وأشعارها ، قال : وما هو إلاالظن؟ هو والله اليقين ثم تناظرا وتساءلا فغضب الكميت وظل يسأله ويناقشه حتى أفحمه(١) .

ولا شك أن ارتباط العلم والتعليم بالمساجد ، كان ارتباطا بين الغاية وتقديس المكان ، حيث تتوافر عوامل الجدة والهدوء وحسن الاستماع ، أضف إلى ذلك عامل الشيوع ، فدخول المساجد مباح لكل وارد ووافد كى يأخذ منها ما يريد من زاد المعرفة وفن القول ، ليس هناك قيود أو حدود لأنها بيوت الله ، يذكر فيها اسمه ، فمن دخلها كان لرغبة جادة هى — إلى جانب إقامة الفروض — التعلم والتفقه والتثقف .

ولا شك أن عامل التشجيع(٢) — من الخلفاء والأمراء — كان له أثره بالنسبة لهؤلاء العلماء المعلمين الذين يضعون جماع ثقافتهم وحفظهم فى خدمة المعرفة ، وليس من شك أيضا ، فى أن هذا الصنيع كان من أهم الأسباب فى إزدهار الحركة العلمية بالمساجد ، إذكان من يبزغ نجمه فى حلقاتها ، لايلبث أن يستدعى إلى دار الخلافة أو دار الولاية أو دور الوزراء ، فإذا العطايا تسبغ عليه ، وإذا الرواتب تفرض له شهريا(٣) .. وقد يصبح نديما لخليفة أو مؤدبا لأبنائه .

---

(١) الأغانى ١٥-١١٣ (ساسى) ، وانظر ضحى الإسلام ٢-٥٣ .

(٢) كان أول من شجع العلماء وسن ذلك وجعله تقليداً للدولة : المهدى ، فإنه أكثر من مكافآته لهم كثرة جعلتهم يشدون إليه الرحال من كل بلد (أنباه الرواه ٢-٣٤) ، وتابعه فى ذلك باقى الخلفاء العباسيين ، فيذكرون أن الرشيد وصل الأصمعى يوماً بمائة ألف درهم . (الطبرى ٦-٤٥٢) .

ويذكرون أيضاً أن المأمون كان سخى اليد كريماً مع العلماء ، يقولون أنه أعطى النضر بن شميل وهو لا يزال أميراً بمرو خمسين ألف درهم (أنباه الرواه ٣-٣٤٩ وما بعدها) .

(٣) العصر العباسى ، ص ١٠٢ .

الصالونات الأدبية :

ومن الأماكن التى أرست دعائم هذه الغاية التعليمية والعلمية أيضاً ، وكانت عاملا حاسما فى خدمة التطور الثقافى ونشر العلم والمعرفة . الصالونات الأدبية ، تلك التى كانت تنعقد فى قصور الخلفاء والأمراء والوزراء، ومنازل العلماء والأدباء .

وقد وضحت ملامح هذه الصالونات منذ العصر الأموى ، وهى وإن كانت تبدو ساذجة بسيطة ، إلا أنها ظهرت رائعة غنية فى العصر العباسى(١) .

فقد كان الخلفاء يعدون أنفسهم رعاة العلم ، وحملة مشعله ، ويرون أن قصورهم يجب أن تكون مركزا تشع منه الثقافة والعرفان . ومثابة ينعم فيها العلماء والأدباء(٢) .

وكان يغلب على هذه الصالونات الأدبية ، خاصة تلك التى تعقد فى رحاب الخلفاء وتحت رعايتهم ، أن تكون مسرحا للمناظرات(٣) العلمية والأدبية ، حيث كانوا يبغون منها تثقيف أنفسهم أولا ، ثم الإمتاع والترويح والترفيه (٤)

---

(١) يرى الدكتور أحمد شلبى أن الصالونات الأدبية ما هى إلا تطور لمجالس الخلفاء الراشدين قديماً ، فقد كان الخلفاء الراشدون يجلسون إلى الناس ليفتوهم فيما يعن لهم من مشكلات فإذا لم يستطع الخليفة أن يهتدى بنفسه إلى الحل استدعى الصحابة ليشاورهم فى الأمر وليستعين بهم وبآرائهم للحصول على جواب سديد (أنظر تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٥١ وما بعدها) .

(٢) يقول المقريزى : « إن المعتضد بالله لما أراد بناء قصره (الثمامية) ببغداد استزاد فى الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد ، فسئل عن ذلك فذكر أنه يريده ليبنى فيه دوراً ومساكن ومقاصير ، يرتب فى كل موضع رؤساء كل صناعة ، ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ، ويجرى عليهم الأرزاق السنية ، ليقصد كل من اختار علماً أو صناعة رئيس ما يختاره ، فيأخذ عنه . (أنظر الخطط ٢ ٣٦٢ ، طبع القاهرة ، طبعة قديمة) .

(٣) أنظر ما كتبه الأستاذ الدكتور شوقى ضيف عن المناظرات فى كتابه « العصر العباسى » ص ٤٥٧ وما بعدها . وما كتبه الأستاذ أحمد أمين عن مجالس المناظرة فى كتابه « ضحى الإسلام » صفحة ٥٤ ، ج ٢ .

(٤) وإن كان الدهاة من الخلفاء كانوا يحرفون فى بعض الأوقات بهذه المجالس إلى دراسة التاريخ وأعمال القواد ، وأشهر الوقائع ، وحوادث الشجاعة ليستعينوا بذلك على مقابلة مشاكلهم الخاصة وما يعترضهم من أحداث . فقد فعل ذلك معاوية وفعله مروان بن محمد الذى كانت تقرأ فى مجلسه سير الملوك وأخبارها ، ولم ينقطع عن ذلك حتى فى أشد الأوقات حرجا ، يوم كان أبو مسلم الخراسانى على وشك السيطرة على خراسان . (المسعودى ٢-٢٠٢) .

يهمنا من هذه المناظرات ، ما يتصل بالنواحى اللغوية والأدبية ، وتزخر برواية الشعر ودراسته وتفسيره .

حكى العاملى(١) .. أن عبد الملك بن مروان جلس يوماً ، وعنده جماعة من ندمائه وأهل مسامرته ، فقال : أيكم يأتينى بحروف المعجم فى بدنه مرتبة وله علىّ ما يتمناه ؟ فقام إليه « سويد بن غفلة » فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين . فقال : هات .. فقال سويد : أنف ، بطن ، ترقوة ، ثغر ، جمجمة ، حلق ، خد ، دماغ ... فقام بعض أصحاب عبد الملك ، وقال : يا أمير المؤمنين أنا أقولها فى جسد الإنسان مرتين ، فقال سويد : أنا أقولها ثلاثا ، وأنشأ يقول : أنف ، أسنان ، أذن .. فأجازه عبد الملك ، وأنعم عليه ، وبالغ فى الإحسان إليه .

ويقدم لنا الأصفهانى صورة أخرى لمجلس من مجالس عبد الملك بن مروان يتصل بالشعر وإنشاده ، فيروى أن أعرابيا حضر مجلس عبد الملك بن مروان وكان جرير حاضرا ، فسأل عبد الملك الأعرابى : من أنت ؟ .. قال : أنا رجل جانبتنى عنعنة تميم وأسد ، وكسكسة ربيعة وحوشى أهل اليمن ، وإن كنت منهم ، فقال : من أيهم أنت ؟ قال : من أخوالك من عُذرة ، قال : أولئك فصحاء الناس ، فهل لك علم بالشعر ؟ قال : سلنى عما بدا لك يا أمير المؤمنين ، قال : أى بيت قالته العرب أمدح ؟ قال : قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فرفع جرير رأسه وتطاول ، ثم قال عبد الملك : فأى بيت قالته العرب أفخر ؟ .. قال : قول جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلّهم غِضابا

---

(١) انظر المناظرة كاملة فى الكشكول ، ص ١٥٥ وما بعدها .

فتحرك جرير ، ثم قال عبد الملك : فأىّ بيت أهجى ؟ قال : قول جرير :

فغضّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فاستشرف جرير لذلك ، ثم قال عبد الملك : فأى بيت أغزل ؟ قال : قول جرير :

إن العيون التى فى طرفها حَوَرٌ قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فاهتز جرير وطرب ، ثم قال عبد الملك : فأى بيت أحسن تشبيهاً ؟ قال : قول جرير :

سرى نحوهم ليلٌ كل نجومه قناديل فيهن الذُّبال المفتّل

فقال جرير : جائزتى للعذرى يا أمير المؤمنين ، فقال له عبد الملك : وله مثلها من بيت المال ، ولك جائزتك يا جرير لا تنتقص منها شيئا(١) ...

فهذه صورة أخرى من مجالس المناظرة فى قصور بنى أمية ، وهى صورة على الرغم من أثر التعصب الواضح فى كلام الرجل — عن جرير — إلا أنها توضح مفهوم القوم ونظرتهم إلى الشعر والشعراء وارتباط ذلك بهوى الحكام وميولهم . أما عن مجالس الشعراء والأدباء ، فقد كانت عامرة أيضاً بصور المناظرة والبحث وإن اختلفت فى المضمون .. مثال ذلك ما رواه الأصمعى قال : « جاء رجل من بنى عبس إلى جماعة وفيها الطرماح فقال : ما عنى كُثيرٌ بقوله لعبد الملك بن مروان :

فأنت المُعَلَّى يوم عُدّت قداحُهم

وجاء المنيحُ وسطهَا يتقلقل

فقال الطرماح : ما تقولون ؟ فقالوا : أراد بالمعلى أنه أعلاهم حظا ، كالمعلى فى القداح ، فقال الطرماح : لا ، ولكنه أراد أنك السابع من ملوكهم ولك أوفر الحظ ؛ لأن أهل الجاهلية كانوا يسمُّون القداح إلى سبعة : أولها : الفَذّ ، والتوأم ، والرقيب ، والمُسَبَّل ، والحِلْس ، والنافس ، والمعلىّ .

---

(١) الأغانى ٧-٥٤ — ٥٥ (طبع سامى) .

وقال فى ذلك الأعشى بنى ربيعة :

ومروانُ سادسُ مَنْ قدمضى وكان ابنُه بعده سابعـــا(١)

هذه صورة خاطفة لبعض مجالس الأدب — فى العصر الأموى — وهى كما قلت ساذجة باهتة ليس فيها عمق العلم أو إعمال العقل ونفاذه .. بل هى مناظرات مسطحة تعتمد السرد والرواية .

فلما قامت الدولة العباسية واستقرت ، بدأت الصالونات الأدبية بمعناها الصحيح تظهر فى العالم الإسلامى ، واتخذت هذه الصالونات أهميتها العلمية ، لتناسب ذلك العصر الذى وضحت فيه الحضارة الأجنبية ، وبخاصة مدنية الفرس ، وأصبحت هذه الصالونات تعقد فى أوقات منتظمة ، وشملت مع قصور الخلفاء قصور الأمراء والعظماء ، واتخذت لها الأثاث الفاخر والرياش لتناسب السعة والرفاهية اللتين نعمت بهما الدولة فى ذلك الحين ، ثم تنوعت الصالونات فأصبحت للآداب أو العلوم أو الفنون (ومنها الغناء والموسيقى) لتناسب الحياة الثقافية المتنوعة الأطراف فى ذلك الحين ، ولكن مجالس العلم والأدب ظلت أرفع هذه المجالس قدرا ، وأعظمها قيمة(٢) .

ونستطيع أن نرى صوراً كثيرة من المناظرات العلمية(٣) — فى هذه الصالونات — أيام العباسيين ، كتلك المناظرة اللغوية المشهورة التى حدثت

---

(١) المصون فى الأدب ، ص ٨٩ — وانظر الخبر كاملا فى الأغانى ١٠-١٥١ (دار الكتب) وعن مجالس الشعراء والأدباء أنظر أيضا المصون فى الأدب ، ص ١٣٥ ، والمعارف ، ص ٢٣٣ ، والبيان والتبيين ١-٣٠٤ ، والفهرست ، ص ١٣١ ..

(٢) تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٦١ .

والدليل على أن مجالس العلم والأدب كانت لها أرفع مكانة ، ما رواه الأصفهانى : « أن اسحق الموصلى — وهو عالم مبرز فى مجالات كثيرة سأل المأمون أن يكون دخوله إليه مع أهل العلم والأدب والرواة لا مع المغنيين » . (الأغانى ٥—٦٠ — سامى) .

وأنظر أيضاً نزهة الألباء ، ص ١١٨ .

(٣) أنظر فى ذلك الفصل القيم الذى عقده السيوطى فى كتابه (الأشباه والنظائر) فى المناظرات والمجالسات والفتاوى والمكاتبات والمراسلات (أنظر ٣-١٥ وما بعدها) .

فى مجلس الرشيد بين سيبويه والكسائى حول المسألة الزنبورية(١) . وقد رويت هذه المناظرة بأشكال مختلفة ، لا تعنينا ، إنما الذى يعنينا أنها مظهر من مظاهر المناظرات العلمية التى كانت تجرى فى ذلك العصر .

ومناظرة أخرى — بين يدى الرشيد أيضا — قطباها الكسائى والأصمعى ، حول معنى بيت الراعى ، سأل الرشيد عن قول الراعى(٢) :

قَتَلُوا ابن عَفَّان الخليفة مُحْرِما
وَدَعَا فَلَمْ أر مثلَهُ مخـــذُولا

ما معنى مُحْرِم ؟ فقال الكسائى : أراد أنه أحرم بالحج . فقال الأصمعى والله ما أحرم ولا عنى الشاعر هذا ، ولو قلت : أحرم : دخل فى شهر حرام كما يقال أشهر : دخل فى الشهر ، كان أشبه ، قال الكسائى : فما أراد بالإحرام ؟ قال : كل من لم يأت بشىء تستحل به عقوبته ، فهو محرم . خبرنى عن قول عدى بن زيد :

قَتَلُوا كِسْرَى بليل مُحْرِما
فَتَوَلَّى لم يُمَتَّع بكَفَـــنْ

أى إحرام كان لكسرى ؟ فسكت الكسائى ، فقال الرشيد : يا أصمعى ما تُطَاق فى الشعر . وقال أحمدبن يزيد ، فقال الرشيد لا تعرّضوا للأصمعى فى الشعر .

وقد كان الظفر فى هذه المناظرات مدعاة الفخر والغبطة ، حتى لقد كان يخرج البعض عن التحفظ أو حدود الأدب فى حضرة الخلفاء أنفسهم ..

---

(١) أنظر تفاصيل هذه المناظرة فى وفيات الأعيان ١-٥٤٩ ، الطبعة القديمة ، سنة ١٢٧٥ هـ وأنظر مناظرة أخرى بين الكسائى واليزيدى فى الأشباه والنظائر ، ٣-١٨ .

(٢) الأشباه والنظائر ٣-١٨ ، وشرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، ص ١٢٦ .
وقد فسر الأصمعى قول الشاعر بقوله : محرم : أى لم يأت ما يستحل به عقوبته ، ومن ثم قيل « مسلم محرم » أى لم يحل من نفسه شيئاً يوجب القتل ، وقوله : « قتلوا كسرى محرماً » يعنى حرمة العهد الذى كان له فى أعناق أصحابه .

مثال ذلك المناظرة التى قامت بين الكسائى واليزيدى عند الرشيد ، حيث جرت بينهما مسائل كثيرة .. فقال اليزيدى للكسائى : أتجيز هذين البيتين :

ما رأينا خربا ... تقر البيضة صقر
لا يكون العير مهرا ... لا يكون المهر مهر

فقال له الكسائى : يجوز على الأقواء ، وحقه « لا يكون المهر مهراً ».

فقال له اليزيدى : فانظرا جيدا ، فنظر ثم أعاد القول ، فقال اليزيدى : « لا يكون المهر مهراً » محال فى المعنى مستوفى الإعراب ، والبيتان جيدان ، كأنه قال : المهر مهر مبتدئاً : أى لا يبلغه العير . وضرب بقلنسوته الأرض . وقال : أنا أبو محمد . فقال له يحيى بن خالد : خطأ الكسائى مع حسن أدبه ، أحب إلينا من صوابك مع سوء أدبك ، أتتكئ قدام أمير المومنين وتكشف رأسك ؟ .. فقال : إن حلاوة الظفر ، وعز الغلبة ، أذهبا عنى التحفظ(١) .

ومن أمثلة المناظرات العلمية التى كانت تعقد فى صالونات الوزراء — تلك المناظرة التى ذكرها بتفاصيلها أبو حيان التوحيدى قال(٢) : إن مجلس الوزير ابن الفرات (أبى الفضل جعفر) انعقد مرة سنة ٣٢٦ هـ ، وفيه : أبو سعيد السيرافى ، والخالدى ، وابن الأخشاد ، والكتبى ، وابن أبى بشر ، وابن رباح ، وابن كعب وقدامة بن جعفر ، والزهدى ، وعلى بن عيسى الجراح ، وابن فراس ، وابن رشيد ، وابن عبد العزيز الهاشمى ، وابن يحيى العلوى ، وأبو بشر متى ، ورسول ابن طغج من مصر ، والمرزبانى .. فقال الوزير : ألا يندب منكم إنسان لمناظرة متى فى حديث المنطق ؟ .. فإنه يقول : لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل ، والصدق من الكذب ، والخير من الشر ، والحجة من الشبهة ، والشك من اليقين ، إلا بما حويناه من المنطق .. فأحجم القوم ، فقال ابن الفرات : والله إن فيكم لمن يفى

---

(١) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، ص ١٢٤ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة : ١-١٠٨ وما بعدها (بتصرف) طبع القاهرة سنة ١٩٣٩ م .

بكلامه ومناظرته، فإنى لأعدُّكم فى العلم بحاراً .. فقال السيرافى : أعذر أيها الوزير ، فإن العلم المصون فى الصدر ، غير العلم المعروض فى هذا المجلس على الأسماع المصيخة والعقول الحادة ..

فقال ابن الفرات : أنت يا أبا سعيد ، فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك ، والانتصار لنفسك راجع إلى الجماعة بفضلك ، فقبّل أبو سعيد ، ودارت مناقشة طريفة ممتعة ذكرها كلها أبو حيان التوحيدى . وإن كنا سنكتفى باستعراض مسألة فرعية وصلت إليها المناقشة : قال أبو سعيد ما تقول فى قول القائل :زيدٌ أفضل الأخوة ؟ قال متّى : صحيح .... قال أبو سعيد : فما تقول لمن قال : زيد أفضل أخوته ؟قال متّى : صحيح . قال أبو سعيد : فما الفرق بينهما مع الصحة ؟ فغض متى بريقه ولم يجب . قال أبو سعيد : أفتيت على غير بصيرة ولا استبانة ، المسألة الأولى جوابك عنها صحيح ، وإن كنت غافلا عن وجه صحتها ، والمسألة الثانية جوابك عنها غير صحيح وإن كنت أيضا ذاهلا عن وجه بطلانها . قال متّى : بين لى ما هذا ؟ قال أبو سعيد : ليس هذا مكان التدريس ، إذا حضرت الحلقة استفدت .

قال ابن الفرات : تمم لنا كلامك فى شرح المسألة حتى تكون الفائدة ظاهرة للمجلس . قال أبو سعيد : (زيد أفضل الأخوة) صحيح لأن زيدا بعض الأخوة وأحدهم ، فكأنك تقول : (حمارك أفره الحمير) ... وأما (زيد أفضل أخوته) فخطأ لأن زيدا ليس بعض أخوته ، إذ أن أخوته غيره ، فكأنك قلت : (حمارك أفره البغال) .

هذه صورة من صور المناظرات العلمية التى كانت تقام فى مجالس الخلفاء والوزراء وغيرهم أوردناها على الرغم من طولها واستغراقها حيزا كبيرا فى مصدرها لنبيّن ما فيها من عمق التفكير وحسن التصرف ، والتصدى للمشكلات العلمية واللغوية والنحوية ..

أما المناظرات العلمية التى كانت تعقد فى منازل العلماء وعلية القوم ، فلعلها كانت أكثر انتشارا ، وأوسع دورانا ، لخلوها من الاسميات ، ومراعاة « البروتوكولات » التى قد تقيد الكلام ، وتسبب الحرج ، وتمنع حرية إعمال الفكر وابتكار القريحة ، .

نستطيع أن نجد أمثلة كثيرة لهذه المناظرات العلمية والأدبية التى دارت رَحَاها بعيداً عن صالونات القصور – فى بطون مصادرنا الغنية .. مثال ذلك المناظرة الحامية التى قامت بين الأصمعى وابن الأعرابى(١) .. قال موسى ابن سعيد بن سَلَمْ : أنشد الأصمعى عندنا قول العجاج ، ومر فيه :

فقد أراني آصِلُ القُصَّادا

فقال له ابن الأعرابى : ماالقُعَّادُ ؟ فقال : يصلح أن يكون مَنْ قَعَدَ من الرجال عن طلب الغزل لكبر ، أو من النساء مثل ذلك .

فقال ابن الأعرابى : هذا للرجال ، فأما للنساء فجمعهن قواعد ، كما قال الله عز وجل ، فضحك الأصمعى وأنشد للقطامى :

أبصارُهُنَّ عنَ الشَّيخانِ مائلةٌ
وقد أراهُنَّ عَنِّى غيرَ صُدَّادِ

ثم قال : فما الفرق بين الصداد والقُعَّاد . فسكت ابن الأعرابى ، فلم يُحْرِ جوابا

واجتمع الأصمعى وأبو عمرو الشيبانى عند أبى السمراء ، فتناشدا وتناظرا وكان إلى جانب الأصمعى فَرْوٌ ، فوضع يده على الفرو ثم قال لأبى عمرو : ما معنى قول مالك بن زُغبة :

بِضَرْبٍ كآذان الفِراء فُضُولُه
وطعن كإيزاغِ المخاض تبورُها

ثم قال لأبى عمرو ويده على الفرو ، ما يعنى بقوله « كآذان الفراء » ؟ فقال أبو عمرو : يعنى هذا الفراء .

---

(١) شرح ما يقع فيه التصحيف ، ص ١٥٤ وانظر ضحى الإسلام ٢-٥٦ ، حيث نقل عن كتاب مجالس مسلم (مخطوط) المناظرة التى قامت بين أبى العباس ثعلب وابن الأعرابى فى حضرة الأمير أحمد بن سعيد بن سلم وجماعة من أهل الأدب حول معانى أبيات من الأبيات الغريبة . وانظر مناظرة أخرى قامت بين أبى عمر الجرمى والأصمعى فى شرح ما يقع فيه التصحيف ص ١١١ .

فضحك الأصمعي وقال : يا أهل بغداد هذا عالمكم(١) .

وفي رواية أخرى(٢) قال له الأصمعي : « أخطأت ، وإنما القراء ههنا جمع قرأ وهو الحمار الوحشي » .

وقال أبو أحمد العسكري (٣) : واجتمع يوما في منزلي بالبصرة أبو رياش وأبو الحسين بن لنكك ، فتقاولا .. فكان مما قال أبو رياش : انت كيف تحكم على الشعر والشعراء وليس تفرق بين الزّفيان والرّقبان ؟ فأجاب أبو الحسين إجابات لم يقنع بها أبو رياش ، وقاما على جدال وشغب .

ولقد كانت هذه المجالس تجمع أحيانا بين أشتات من العلماء ، تختلف اهتماماتهم وتتنوع تخصصاتهم ، وتتعدد ميولهم ومعتقداتهم — وإن تفرقوا جميعاً في الغاية والهدف وهو حب الأدب ، فتراهم يتناشدون الشعر ويتناظرون حوله .

يقول صاحب « النجوم الزاهرة » عن مجلس من هذه المجالس ، التي كانت تقام بالبصرة : « كان يجتمع بالبصرة عشرة في مجلس لا يُعْرَف مثلهم : الخليل بن أحمد صاحب العروض سُنّي ، والسيد محمد الحميري الشاعر رافضي وصالح بن عبد القدوس ثنوي ، وسفيان بن مجاشع صُفْرِيّ ، وبشار بن برد

---

(١) المصون في الأدب ، ص ١٩٤ ، وشرح ما يقع فيه التصحيف ، ص ٩٥ ، واللسان مادة « فرأ » ومادة « وزغ » ، وديوان المعاني ٢-٧٣ ، والاشتقاق ص ٢١٠ ، والكامل ص ١٨١ ، وطبقات الزبيدي ، ص ٢١٢ ، والحيوان ٢-٢٥٦ .

(٢) المزهر ٢-٢٢٦ .

(٣) شرح ما يقع فيه التصحيف ص ٣٧١ : « والرقبان شاعر جاهلي قديم ، يقال له : أشعر الرقبان ، وربما قيل له الأشعر ، وأما الزغبان فهو من بني تميم من نصير من بني سعد بن زيد ابن مناه ، ويعرف بالزفيان السعدي وهو الراجز ، وأكثر شعره الرجز . هذا ما ذكره أبو أحمد العسكري .

وانظر مناظرات مماثلة في طبقات الزبيدي ، ص ١١٨ — ١١٩ ، وأنباه الرواة ٣-٢٤٩ — ٢٥٠ ، ومجالس العلماء ص ١٢٣ ، ونزهة الألباء ، ص ١٢٨ ، ومعجم الأدباء ٣-٣٠ — ٣١ ، وتاريخ بغداد ٣-٣٨٠ ، ١٩ ١١٣ .

خليع ماجن ، وحماد عجرد زنديق ، وابن رأس الجالوت الشاعر يهودى ؛ وابن نظير النصرانى متكلم ، وعمرو بن أخت الموبذ مجوسى ، وابن سنان الحرّانى الشاعر صابئى ، فتناشد الجماعة أشعاراً وأخباراً .. »(١) .

على أن هذه المناظرات كانت تضم أحيانا علماء ولغويين غير ملمين — أو غير ثقات — فكانوا بحضرة خليفة أو أمير فى مجلس عام ، يُسألون عن كلمة أو معنى بيت فيُحْرجُون — فبدلا من قولهم لا أدرى ، يضطرون إلى اختراع معنى .. أى معنى ، لعل ذلك يخرجهم من حرجهم ، بيد أنهم كانوا فى أغلب الأحيان يهرقون ماء وجوههم نتيجة لكذبهم واختراعهم .. ومنهم من كان يلمز لمزاً .. كالذى حكى عن المبرد(٢) أن جماعة وضعوا له كلمة « القبعض » وسألوه عن معناها ، فقال : « معناها القطن » ... قال الشاعر :

كأن سَنَامَها حُشِىَ القِبَعْضَا

فاخترع المعنى واخترع له الشاهد أيضا .

حوانيت الوراقين :

ومن الأماكن العامة التى كانت مقصداً لطلاب العلم ، وكان لها أثر لا ينكر فى سبيل الغاية التعليمية والعلمية معا « حوانيت الوراقين » ، فقد كانت مسرحا كبيراً للثقافة ، ومجالا للمناظرات الأدبية والحوار العلمى ، أمّها المثقفون والأدباء ، واتخذوها منتدى لهم ، وملتقى لاجتماعاتهم ، ومكانا لعرض أبحاثهم ، وإقامة مناظراتهم ، ثم تحولت هذه الحوانيت رويدا رويدا لتصير مقصداً لكل من يبغى علما ، أو يهوى أدبا ، حتى ليذكرون أن الجاحظ كان يكترى هذه الدكاكين ، ويبيت فيها للبحث والنظر .

---

(١) النجوم الزاهرة ٢-٢٩ .

(٢) أنظر تاريخ بغداد (٣-٣٨٠) ، ومعجم الأدباء (١٩-١١٣) .

وأنظر أيضاً اختراعه لمعنى الشاة المجثمة التى نهى النبى — صلى الله عليه وسلم — عن أكل لحمها . (فى معجم الأدباء ٣-٣٠ — ٣١) .

نقد ظهرت دكاكين بيع الكتب منذ مطلع الدولة العباسية(١) ، وكان أهم عامل فى ظهورها ثم ازدهارها هو « نشأة الكتاب »(٢) نتيجة لاختراع الورق واستخدامه(٣) .

فضى العلماء يسجلون أبحاثهم ، ويُدَوّنون مؤلفاتهم ، وقد اتخذوا لأنفسهم وراقين ينقلون عنهم كتبهم(٤) ، ويذيعونها فى الناس ، ولم تلبث أن كثرت المصنفات ، وتعددت المؤلفات ، فاتسعت صنعة الوراقة التى تعد فى هذا العصر محل الطباعة فى عصرنا الحديث .

وقد ساعدت عمليات النسخ(٥) على ازدهار سوق الوراقة ، فكثرت الكتب ، وتنافس الناس على اقتنائها ، وقلد العلماء وعلية الناس الخلفاء

---

(١) Hitti, Histary of the Arabs p. 414.

(٢) يقول الدكتور أحمد كمال زكى : ويمتاز القرن الثانى بظاهرة التأليف ، وباتخاذ الكتب المؤلفة مناهج خاصة منظمة ، من ذلك كتاب سيبويه فى النحو ، وكتاب الخليل فى اللغة ، وكتابه فى العروض وبعض كتب الجاحظ .. وظلت ظاهرة التدوين باقية ، وإن اتخذت مظهراً منظماً ، من ذلك أن الأصمعيات التى جمع فيها الأصمعى ما أعجبه من شعر قديم ، ونقائض جرير والفرزدق التى تعد أضخم مجموعة شعرية تعرض لتاريخ أمة ، وقد عنى بجمعها أبو عبيدة . (الحياة الأدبية فى البصرة ، ص ١٥٠) .

وفى الكوفة وجدنا نشاطاً مماثلا فى مجال التأليف والتصنيف عند الكسائى والمفضل الضبى وغيرهما فألّف الأول رسالة فى لحن العامة للرشيد ، وصنف الثانى ديوان المفضليات للمهدى .

(٣) أنشأ الفضل بن يحيى البرمكى – فى عهد الرشيد – أول مصنع للورق ببغداد ، وكان ذلك سبباً فى إنتشار الكتابة واتساع استخدام الورق لخفته ، وكانوا قبل ذلك يكتبون فى الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردى (العصر العباسى ، للدكتور شوقى ضيف ، ص ١٠٣)

(٤) مثل أبى غسان وراق أبى عبيدة (الفهرست ص ٨١) ، ومحمد بن سعد كاتب الواقدى (الفهرست ص ١٤٤) وعبد الوهاب بن عيسى وراق الجاحظ (تاريخ بغداد ١١-٢٨) . وكان علان الشعوبى منقطعاً إلى البرامكة وينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون (الفهرست ١٥٣) كما نسخ الأثرم للرشيد كتب أبى عبيدة (نزهة الألباء ، ص ١٢٢) .

(٥) أنظر ما كتبه الدكتور أحمد شلبى عن النسخ والنساخ فى تاريخ التربية الإسلامية ، ص ١٤٥ وما بعدها .

والأمراء فاتخذوا لأنفسهم مكتبات خاصة(١) . كما أقامت الدولة بدورها — منذ عهد الرشيد — مكتبة ضخمة هي دار الحكمة(٢) ، التي كانت أشبه بجامعة كبرى لطلاب العلم والثقافة ، كما أنشئت المكتبات الفرعية في الأقاليم المختلفة(٣) حتى لا يحرم سكانها من نور العلم أو زاد المعرفة .

ولقد كان هذا الاهتمام بالكتب ونسخها سببا في أن بعض الوراقين افتتحوا لأنفسهم حوانيت خاصة ، ملئوها بالكتب يتجرون فيها ، وسرعان ما انتشرت هذه الحوانيت بسرعة انتشاراً عم الأمصار الإسلامية ، حتى لقد حفلت كل مدينة ، بل كل محلة بعدد وافر منها . يقول اليعقوبي — في معرض حديثه عن أرْبَاضَ بغداد : « ثم ربض وضاح مولى أمير المؤمنين وبه أكثر من مائة حانوت للوراقين »(٤) .

ومن المهم أن نعرف ان هؤلاء للوراقين — بائعي الكتب — لبسوا تجارا يبغون الربح ، وإنما كانوا في معظمهم أدباء وعلماء ، يسعون إلى بذل العلم ، وتقديمه إلى كل من يهوى المتعة الفنية والعقلية ، فنجد محالهم قبلة طلاب العلم ،

---

(١) مثل مكتبة اسحق بن سليمان التي كانت تمتلىء بالكتب والأسفاط والدفاتر (الحيوان ١-٦١) ومكتبة يحيى بن خالد البرمكي ، بل يقال إنه لم يكن في مكتبه كتاب إلا وله ثلاث نسخ (الحيوان ١-٦١) ومكتبة الواقدي المؤرخ ، وكانت تشتمل على ستمائة صندوق مملوءة بالكتب (معجم الأدباء ١٨-٢٨١) ومكتبة الصولي التي كانت مملوءة بالكتب وكان يميز بين موادها المختلفة بألوان جلودها (تاريخ بغداد ٣-٤٣٩) .

(٢) أنظر ما كتبه عنها الأستاذ أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام ٢-٦٤ وما بعدها .

(٣) أنظر ما كتبه الدكتور أحمد شلبي عن هذه المكتبات الفرعية ، مثل المكتبة الحيدرية بالنجف ، ومكتبة ابن سوار بالبصرة ، وخزانة سابور ، وغيرها .

(تاريخ التربية الإسلامية ص ١٦٤) .

(٤) البلدان ص ١٧ . وقد تعرض المقريزي في مواضع كثيرة ، من كتابه الخطط ، للحديث عن هذه المحال ، أنظر على سبيل المثال ١-٣٦١ ، ٢-٩٦ ، ١٠٢ .

ويصف ابن الجوزي (٥٩٧ هـ) سوق الوراقين ببغداد حتى زمنه بقوله : « إنها سوق كبيرة وهي مجالس العلماء والشعراء » (أنظر مناقب بغداد ص ٢٦ ، طبع بغداد ، سنة ١٣٤٢ هـ)

ومهوى أفئدة الباحثين عن الشعر والأدب ، يلتمسون فيها غذاء للعقل والروح وإجابة عما يعن لهم من تساؤلات ، وما يدور فى هذه الحوانيت من موضوعات وقد حفلت أسماء الوراقين بشخصيات لامعة فى مجال العلم والأدب والتصنيف والتأليف .. كابن النديم(١) ، وعلى بن عيسى ، المشهور بابن كوجك ، الذى وصفه ياقوت بأنه « كان وراقا ، وكان أديبا فاضلا ، وقد ألف عدة كتب »(٢) .

ونستطيع أن نجد دليلا على ماكان يحدث فى حوانيت الوراقين من مذاكرة ومدارسة للأدب عموما ، وللشعر خصوصا ، فيما ذكره ياقوت فى معجمه قال (٣) : « كان من عادة أبى الفرج الأصفهانى وأبى نصر الزجاج أن يلتقيا كثيراً فى دكان فى سوق الوراقين ، وفى إحدى جلساتهما كان أبو الحسن على بن يوسف الشاعر جالسا عند أبى الفتح بن الحزاز الوراق ، وهو ينشد أبيات إبراهيم بن العباس الصولى التى يقول فيها :

رأى خلتى من حيث يخفى مكانها
فكانت قذى عينيه حتى تجلت

فلما بلغ إليه استحسنه وكرره ، حدث أبو نصر الزجاج قال : قال لى أبو الفرج : قم إليه فقل له، قد أسرفت فى استحسان هذا البيت ، وهو كذلك .. فأين موضع الصنعه فيه ؟ فقمت فقلت له ذلك ، فقال : قوله : « وكانت قذى عينيه » . فعدت إلى الأصفهانى وعرفته ذلك ، فقال : عد إليه فقل له أخطأت الصنعة فى قوله : « من حيث يخفى مكانها » .

وفى الحقيقة لم يقف النشاط العلمى ، والرغبة فى الأدب عند حوانيت الوراقين ، بل انتقل منها إلى غيرها من محال البيع والشراء . يقولون إن دكان

---

(١) معجم الأدباء ٦-٤٠٨ .

(٢) معجم الأدباء ٥-١٧٩ « وكان ياقوت الحموى نفسه ، صاحب معجم الأدباء ومعجم البلدان وراقا » (ابن خلكان ٢-٣١١ - ٣١٢) .

(٣) معجم الأدباء ١٣-١١٢ .

أبي العتاهية — الذي كان يبيع فيه الجرار والفخار — كان ملتقى الشباب المتأدب ينشدهم أبو العتاهية أشعاره ، ثم يأخذ هؤلاء ما تكسر من الخزف .. فيكتبونها فيها»(١) .

ونظراً لما كان لهذه الحوانيت من قيمة عظمى ، وغاية جلى ، فقد ربط بعض الباحثين(٢) بينها وبين أعظم مواطن نشر الثقافة قديما — وهي أسواق العرب في الجاهلية — عكاظ ، ومجنة ، وذي المجاز — ففي تلك الأسواق كان العرب يجتمعون للقيام ببعض الصفقات التجارية ، ولكنهم كانوا ينتهزون فرصة هذا الاجتماع ليقوموا بنشاط رائع في الناحية الأدبية ، فينشدون الأشعار ويعقدون المناظرات(٣) . وحاكتها في ذلك دكاكين بيع الكتب حيث أمّها المثقفون والأدباء واتخذوا منها مكانا لاجتماعاتهم وأبحاثهم .. فرق وحيد بين أسواق العرب وحوانيت الوراقين ، أن الاجتماعات الثقافية كانت يومية في دكاكين بيع الكتب ، على حين كانت سنوية في أسواق العرب .

---

(١) الأغاني ٣-١٢٩ (ساسي) .

وكان أبو بكر الصبغي (ت ٣٤٤ هـ) يعمل الصبغ بنفسه ، ويبيعه في حانوته ، وكان من أعيان فقهاء الشافعية في عصره ، كثير السماع والحديث ، وكان حانوته مجمع الحفاظ والمحدثين ، وكان عبد الله بن يعقوب يجلس على باب هذا الحانوت يقرأ للناس .

(أنظر : طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢-١٦٨ طبع القاهرة ، سنة ١٣٢٤ هـ) .

(٢) الدكتور أحمد شلبي ، تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٤٠).

(٣) أنظر أمثلة على ذلك في الأغاني ٤-٣٥ (ساسي) ، والبداية والنهاية لأبي الفدا ٢-٢٣٠ طبع القاهرة ، سنة ١٣٥١ هـ .

المربد والبادية:

ومعهد آخر من المعاهد العامة للتعليم، كان يتسابق إليه الجمهور الأدبى، للنهل من التراث الشعرى واللغوى .. إنه «سوق المربد»(١) الذى امتازت به بادية البصرة. حيث كان جمهور الشباب، يغدون عليه ويروحون للقاء الفصحاء من الأعراب، والتحدث إليهم، تمرينا لألسنتهم، وتربية لأذواقهم ومحاولة لاكتساب الفصاحة، والسليقة العربية المصفاة من شوائب العجمة واللحن، يكتبون ما يسمعونه من طرائف الشعر وروائع الأدب. ولم يكن الجمهور الأدبى وحده الذى يذهب إلى المربد، بل كان شباب الشعراء أيضا يفدون إليه، على نحو ما تذكر المصادر عن أبى نواس، وأنه كان يذهب إلى المربد بألواحه للقاء الأعراب(٢)، كما رحل بشار إلى البادية ليأخذ اللغة والشعر من ينابيعهما الأصلية(٣)، وغيرهما كثيرون.

كما كان يفد إليه العلماء أنفسهم ليتزودوا، ويستعينوا على أداء مهامهم

---

(١) المربد ضاحية من ضواحى البصرة فى الجهة الغربية منها مما يلى البادية، بينه وبين البصرة نحو ثلاثة أميال، أنشأها العرب على طرف البادية سوقاً يقضون فيه شئونهم قبل أن يدخل الحضر أو يخرجوا منه. وقد كان المربد فى الإسلام صورة معدلة لعكاظ فى الجاهلية، كان يجتمع العرب من الأقطار يتناشدون فيه الأشعار، ويبيعون ويشترون، وكان المربد فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين مركزا سياسياً وأدبياً نزلت فيه عائشة أم المؤمنين بعد مقتل عثمان، تطالب بدمه، وتؤلب الناس على على ثم تحول إلى مركز للمهاجاة بين جرير والفرزدق والأخطل، وأنتج ذلك أقوى الشعر الهجائى ..

أنظر: ضحى الإسلام ٢-٨٠.

وانظر أيضاً ما كتبه الأستاذ شوقى ضيف عن المربد فى كتابه العصر العباسى، ص ١٠٠).

(٢) الحيوان ٦-٢٣٩.

(٣) الأغانى ٣: ١٥٠ (دار الكتب).

التعليمية والعلمية ، يأخذون عن أهله ، ويدونون ما يسمعون(١) . روى القالى(٢) عن الأصمعى قال : « جئتم إلى أبى عمرو بن العلاء فقال : من أين أقبلت يا أصمعى ؟ قلت : جئت من المربد : قال : هات ما معك ، فقرأت عليه ما كتبت فى ألواحى ، فمرت به ستة أحرف لم يعرفها ، فخرج يعدو فى الدرجة ، وقال : « شمَّرْت فى الغريب يا أصمعى » أى غلبتنى فيه .

وذكر ياقوت : أن الجاحظ أخذ النحو عن الأخفش ، وأخذ الكلام عن النظَّام ، وتلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد(٣) .

ولم يكن سوق المربد هو المعهد الوحيد لتلقى العلم ؛ بل لقد كانت البادية أكبر جامعة عربية ، تضم بين أنحائها أساطين اللغة والشعر ، لذلك أوفد إليها الخلفاء الأمراء ليتعلموا اللغة الفصيحة النقية ، وليتذوقوا فنون الشعر والأدب. فقد أرسل معاوية إليها إبنه وولى عهد ه يزيد(٤) ، وأرسل هارون الرشيد إليها ابنه المعتصم للغرض نفسه (٥).

بيد أن البادية لم تكن مدرسة للأمراء فحسب ، وإنما قصدها عدد كبير من طلاب العلم والأدب ، قبل أن يصبحوا أمراء العلم والأدب . قصدها

---

(١) ١ما خرج النحويين إلى المربد يسمعون من أهله ما يصحح قواعدهم ، ويؤيد مذاهبهم خاصة حين اشتد الخلاف بين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة فى النحو ، فكان المربد أهم مدد لمدرسة البصرة . وخرج الأدباء أيضاً – إلى المربد – يقطفون ثمار الأدب من جُمَّل بليغة. وشعر رصين وأمثال وحكم ، ما خلفه عرب البادية . (ضحى الإسلام ٢-٨١) .

(٢) الأمالى ٣-١٨١ .

(٣) معجم الأدباء ٦-٥٦ .

(٤) العقد الفريد ٢-١٨ ، طبع القاهرة ، سنة ١٩١٣ م .

(٥) العقد الفريد ١-٣٦٥ .

الخليل بن أحمد(١) والكسائى(٢) ، والشافعى (٢٠٤ هـ)(٣) ، والرياشى(٤) وغيرهم .

وكان الذين يفدون إلى البادية يتعلمون من جمهرة البدو .. إذ أن اللغة البدوية الفصيحة كانت وحدها اللغة المستعملة فى هذه البقاع ، اكانضموا إلى الحلقات العلمية التى كان يعقدها كثير من أفذاذ البدو وفصحائهم ليرووا فيها أجود الشعر ، ويذكروا أمجاد العرب وأيامهم . وكان من هؤلاء أبو مالك عمرو بن كركرة ، وأبو ثروان العكلى ، أو هندام كلاب بن حمرة(٥) .

وانتهز البدو هذه الفرصة فوفدوا على القرى والمدن ، وجلسوا يعلمون الناس اللغة ورواية الشعر القديم . ويقدم لنا ابن النديم صورة واضحة عن البدو الذين وفدوا إلى الحواضر ، واتخذوا التعليم مهنة لهم .. من هؤلاء أبو البيداء الرياحى(٦) ، وأبو جاموس ثور بن يزيد أستاذ عبد الله بن المقفع(٧) ، وأبو العثيل عبد الله خليد(٨) ، وعبد الله بن عمرو بن أبى صبح(٩) . قال المفضل : « لم يزل ابن الإعرابى عندنا مرمدا (فقيرا) فى علمه غير مفارق

---

(١) نزهة الألباء ص ٨٣ .

(٢) نزهة الألباء ص ٨٤ .

(٣) يقول الشافعى عن حياته فى البادية « ... ثم إنى خرجت عن مكة ، فلزمت هذيلا فى البادية أتعلم كلامها وآخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب ، فبقيت فيهم سبع عشرة سنة ، أرحل برحيلهم ، وأنزل بنزولهم ، فلما رجعت إلى مكة ، جعلت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب » . (معجم الأدباء ٦-٣٦٩) .

(٤) الفهرست ص ٨٦ .

(٥) الفهرست : ص ٦٦ ، ٦٩ ، ١٢٢ على الترتيب .

(٦) الفهرست : ص ٦٦ .

(٧) المصدر نفسه ص ٦٧ .

(٨) المصدر نفسه ص ٧٢ .

(٩) المصدر السابق ص ٧٣ .

للناس ، حتى قدم علينا أعراب فى اليمامة ففاتحهم الغريب ، ففتقوا له ، وكان علمه الذى حصل فى نحو من شهر(١) » .

وقرىء يوما على الأصمعى فى شعر أبى ذؤيب :

بأسفل ذاتِ الدَّيرْ أُفْرِد جَحْشُها

فقال أعرابى حضر بالمجلس للقارىء : ضل ضلالك أيها القارىء ... إنما هى « ذات الدبر » وهى ثنية عندنا ، فأخذ الأصمعى بذلك فيما بعد(٢) .

ونتيجة لذهاب العلماء والشعراء إلى البادية ، وقدوم الأعراب البدو إلى الأمصار عاشت اللغة العربية البدوية بثوبها القشيب « الشعر » — كما كانت من قبل — فى قلوب العلماء ، وعلى ألسنة الشعراء ، وظلت تعد النموذج الذى لا يدرك لكمال الفصاحة .. » يقربه إلينا بأوضح تصوير مثال اللغوى : لُغْدَة الأصبهانى ، المعاصر لأبى حنيفة الدينورى (المتوفى سنة ٢٨٢ هـ) فهو يدين بمعارفه اللغوية التى لفتت بها الأنظار فى بغداد ، لمخالطته للأعراب ، الذين نزلوا بأصبهان فى خدمة محمد بن يحيى بن أبان ، ونصبوا خيامهم فى رحابه ، فقد ألح فى سؤالهم عن جميع ما غمض عليه فى كتابات أبى زيد ، وأبى عبيدة ، والأصمعى ، التى حفظها عن ظهر قلب فى صباه ، واكتسب بذلك علماً غزيراً لم يضارعه فيه أحد بالعراق » .(٣) .

على أن رحلات طلاب العلم لم تقتصر على المربد أو البادية فقط ؛ بل لقد رحلوا فى كل اتجاه ، وتحملوا فى سبيل غايتهم كل الصعاب(٤) ؛ يدفعهم

---

(١) طبقات الزبيدى ص ٢١٤ .

(٢) الشعر والشعراء ١-٨٣ .

(٣) العربية : ص ١٢١ .

(٤) قال الأصفهانى : « لا يتأدب الرجل حتى يتجنب الفراش الوطيء والدثار الدفيء » . (محاضرات الأدباء ١-٢٨) .

وقال ابن جماعة : « .. ويقطع الطالب ما قدر عليه من العلائق الشاغلة والعوائق المانعة=

إلى ذلك حرصهم على التعلم من العديد من العلماء والشيوخ . فتعدد الأساتذة يفيد فى تعدد العلوم ، وتنوع الطرق والمناهج ، إذ لكل طريقته ومنهجه فى التعليم .

يقول ابن خلدون : « الرحلة فى طلب العلوم مفيدة ، لأن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم تارة علما وتعليما وإلقاء ، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة ، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا ، والرحلة تفيد كثرة الشيوخ ، وعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها »(١) .

ويقول الدكتور أحمد شلبى : « لقد كانت قيمة طالب العلم - فى نظر الناس - تتناسب مع ما قام به من رحلات لطلب العلم ، ومع عدد المدرسين الذى تلقى عنهم ، وكل هذه الظروف شجعت الطالب ، ودفعته دفعاً ليتلقى أفانين من العلم فى أى من بقاع الأرض »(٢) .

وقد ذكرت المصادر أن الخطيب التبريزى(٣) كان يمتلك نسخة من كتاب التهذيب فى اللغة للأزهرى فى عدة مجلدات ، أراد تحقيق ما فيها وسماعها على عالم باللغة ، فدل على أبى العلاء المعرى ، فجعل الكتاب فى مخلاة ، وحملها على كتفه ، وسار راجلا من تبريز إلى معرة النعمان ، فنفذ العرق من ظهره إليها فأثر فيها البلل .

=عن تمام الطلب ، وبذل الاجتهاد وقوة الجد فى التحصيل فإنها كقواطع الطريق ، ولذلك استحب السلف التغرب عن الأهل ، والبعد عن الوطن لأن الفكرة إذا توزعت قصرت عن درك الحقائق وغموض الدقائق » . (تذكرة السامع والمتكلم ص ٧٠ - ٧١) .

وقال الشعبى : « لو أن رجلا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة ، ما رأيت أن سفره ضاع » . (أنظر جامع بيان العلم لابن عبد البر ، ص ٩٥) .

(١) المقدمة . ص ٣٩٩ وما بعدها (بتصرف) .

(٢) تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٣٠٩ .

(٣) أنظر خبر ذلك ضمن ترجمته فى معجم الأدباء ٧ ٢٨٦ (الطبعة القديمة) وابن خلكان (ترجمته) .

المؤدبون الخصوصيون :

وفى سبيل الغاية التعليمية ، لا نستطيع أن نغفل مجهودات المؤدبين الخصوصيين فى مجال التعليم والتأديب(١) ، فقد اتسع نشاطهم عن نطاق تأديب أولاد الخلفاء والأمراء ، ليشمل الجمهور الأدبى كله ، ولتبقى مجهوداتهم الأدبية والعلمية حديث الأجيال ، معيناً لا ينضب ، وذخيرة لغوية وأدبية لا تنفد ، يتوارثها الأجيال عبر القرون ، وتتغنى بقيمتها الأيام والسنون

من هؤلاء المؤدبين : شرقى بن القطامى(٢) معلم المهدى ، والمفضل الضبى(٣) معلم المهدى — وله اختار مجموعته الشعرية الخالدة « المفضليات » ، والكسائى(٤) معلم الرشيد ، وله ألف كتاب « لحن العامة » . وقطرب(٥)

---

(١) هذا النوع من التعليم الأرستقراطى فى القصور — وإن ارتبط بحركة التعليم عموماً ، إلا أنه يختلف عن التعليم العادى ، سواء فى الكتاتيب أو فى المساجد وغيرها ، فالمنهاج هنا يضعه أو يشارك فى وضعه الأب ليكون ملائماً لابنه ، والمعلم هنا لا يسمى معلم الصبيان أو كتاب ، وإنما يطلق عليه لفظ « مؤدب » ، ومن الطبيعى أن تتلون مناهج التعليم لأولاد الخلفاء تبعاً لمستقبلهم ، وما ينتظرهم من مهام .

— أنظر ما كتبه الأستاذ أحمد أمين عن معلمى أولاد الخلفاء فى كتابه « ضحى الإسلام » ٢-٥٤ وما بعدها .

— وما كتبه الأستاذ الدكتور أحمد شلبى عن التعليم الأولى بالقصور فى كتابه « تاريخ التربية الإسلامية » ص ٣٦ وما بعدها .

— وانظر أيضاً العقد الفريد ١-٢٦٣ ، ومحاضرات الأدباء ١-٢١ .

— وانظر ما ذكره ابن قتيبة عن المناهج والإرشادات التى وضعها الآباء للمؤدبين فى عيون الأخبار ١٦٦٤٢ .

— وأنظر أيضاً المنهج الشامل الذى وضعه الرشيد للأحمر معلم ولده الأمين ولى عهده فى كتاب « المحاسن والمساوىء » للبيهقى ، ص ٦١٧ ، طبع ليبسك ، سنة ١٣٢٠ هـ .

(٢) نزهة الألباء ، ص ٢٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

(٥) تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ٢-١٣٩ .

مؤدب الأمين ، وأبناء أبى دلف العجلى قائد المأمون المشهور ، وعلى بن المبارك الأحمر (١) أحد مؤدبى الأمين ، واليزيدى (٢) مؤدب أبناء يزيد ابن المنصور الحميرى خال المهدى — ومن أجل ذلك لقب باليزيدى . والفراء (٣) معلم أبناء المأمون ، والصولى (٤) مؤدب أولاد المقتدر ، والمرزوقى (٥) مؤدب أبناء بنى بويه بأصبهان .. وغيرهم .. وغيرهم ..

ولم يكن اختيار هؤلاء المؤدبين خبط عشواء ، أو لمجرد الشهرة ، وديوع الصيت ، بل كان الخلفاء والأمراء يعقدون الندوات والمناظرات ، يستقرئون علمهم ، ويختبرون حفظهم ، فمن برز وظهر ، رفعوه وقربوه ، قال محمد بن اسحق النديم (٦) : « لما أراد المتوكل أن يتخذ المؤدبين لولده ، جعل ذلك إلى إيتاخ (٧) ، فأمر إيتاخ كاتبه أن يتولى ذلك ، بعث إلى الطوال والأحمر ، وابن قادم ، وأبى عصيدة (أحمد بن عبيد بن ناصح المتوفى سنة ٢٧٣ هـ) وغيرهم من أدباء ذلك العصر ، فأحضرهم مجلسه ، وجاء أبو عصيدة ، فقعد فى آخر الناس ، فقال له من قرب منه ، لو ارتفعت ، فقال : بل أجلس حيث أنتهى بى المجلس ، فلما اجتمعوا ، قال لهم الكاتب ، لو تذاكرتم وقفنا على موضعكم من العلم ، واخترنا . فألقوا بينهم بيت أبى عنقاء الفزارى :

ذَرِينِى إنَّما خَطَئِى وصَوْبِى عَلَىَّ وإنما أنفقتُ مالُ

---

(١) نزهة الألباء ، ص ٦٥ .

(٢) بروكلمان ٢-١٦٨ .

(٣) نزهة الألباء ، ص ٦٦ ؛ وبروكلمان ٢-١٩٩ .

(٤) أخبار الراضى بالله ، للصولى ، ص ٢٥ .

(٥) معجم الأدباء ٥-٣٥ .

(٦) المصدر السابق ٣-٢٢٨ .

(٧) ايتاخ علم تركى ، ن كان لهم النفوذ فى البلاط العباسى فى ذلك الحين .

فقالوا : ارتفع مال بانما ، إذا كانت (ما) بمعنى (الذى) ، ثم سكتوا .

فقال لهم أحمد بن عبيد من آخر الناس : هذا الإعراب .. فما المعنى ؟

فأحجم الناس عن القول . فقيل له : فما المعنى عندك ؟

قال : أراد ما لومك إياى ؟ وإن أنفقت مال ، ولم أنفق عرضا ، فالمال لا ألام على إنفاقه . فجاءه خادم من صدر المجلس ، فأخذ بيده حتى تخطى به إلى أعلاه . وقال له : ليس هذا موضعك ، فقال : لأن أكون فى مجلس أرفع منه إلى أعلاه أحب إلى من أن أكون فى مجلس أحط عنه .. فاختير هو وابن قادم » .

وقد ظل المعلمون يلقون طلابهم ، ويبذلون علمهم — فى أماكن العلم المختلفة — حتى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى .. إذ جد حادث جديد كان له شأنه وهو « نشأة المدارس »(١) بصورة واسعة ، وتزويدها بالعتاد والأساتذة المتخصصين فى فروع العلوم والآداب ، ومن ثم تحولت الأنظار إلى هذه المدارس ، وصارت القبلة التى يتجه إليها كل طالب علم ، وراغب أدب ، للاستماع إلى أساتذتها والانتفاع بما فيها من ميزات ، وكانت أهم هذه المدارس وأكثرها انتشارا « مدارس نظام الملك »(٢) .

وقد كانت « نظامية بغداد » أولى المدارس النظامية وأهمها ، وقد بدأ العمل فيها سنة ٤٥٧ هـ . وكانت على شاطىء دجلة ، وكان بناؤها أبا سعيد الصوفى . وفى سنة ٤٥٩ هـ استتم بناؤها ، وانتظمت أحوالها ، وسكنها من

---

(١) أنظر : ضحى الإسلام ٢-٥٠ وما بعدها ؛ وتاريخ التربية الإسلامية ص ٩٩ وما بعدها .

(٢) يقول أبو شامة : « ومدارس نظام الملك فى العالم مشهورة ، لم تخل بلد من شىء منها حتى جزيرة ابن عمر التى هى فى زاوية من الأرض لا يؤتى لها ، بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة ، وهى التى تعرف الآن (أى زمن أبى شامة) بمدرسة رضى الدين ... » .

(أنظر كتاب الروضتين ١-٢٥ ، طبع القاهرة ، سنة ١٢٨٧ هـ) .

وانظر ما ذكره عماد الدين الأصفهانى عن هذه المدرسة فى كتابه « تاريخ آل سلجوق » صفحة ٥٧ ، طبع أبريل سنة ١٨٨٩ م ، وما كتبه السبكى عنها فى طبقات الشافعية الكبرى ٣-١٣٧ طبع القاهرة ، سنة ١٣٢٤ هـ .

حملة الشريعة رجالها ، ودرّس فيها الشيخ أبو اسحق الشيرازى ، فأحيا من العلم ما درس ، وكشف من الحق ما التبس ، وشرح الأصول وفروعها ، وأوضح الأدلة ونوعها(١) .

وقد تعاقب على التدريس فيها مجموعة من العلماء المتخصصين المشهود لهم بالعلم والأدب ، من هؤلاء . أبو نصر الصباغ (ت ٤٧٧ هـ)(٢) ، وأبو القاسم العلوى (٤٨٢ هـ)(٣) ، وأبو عبد الله الطبرى (٤٩٥ هـ) (٤) ، وأبو محمد ابن عبد الوهاب الشيرازى (٥٠٠ هـ) (٥) ، وأبو زكريا التبريزى (٥٠٢هـ)(٦) وموهوب بن أحمد الجواليقى (٥٣٩ هـ)(٧) .. وغيرهم(٨) .

والآن .. وبعد هذه الجولات الطويلة ، المتعددة النواحى ، التى قطعناها عبر الزمان ، وبعد هذه السياحات الكثيرة ، الواسعة الأرجاء ، التى اجتزنا فيها البوادى الشاسعة القفار — عبر المكان ..

— ما الحصيلة التى نستطيع أن نخرج بها ؟

— وما هى خلاصة ما يمكن أن يقال نتيجة لتتبعنا للحاجة الثقافية التى دعت إلى شرح الشعر وتحليله ، لتقديمه إلى الجمهور الأدبى ، وطلاب المتعة الفنية ، والثقافة الأدبية .. ؟

لقد تتبعنا هذه الحاجة ، فوجدناها قد اختلفت باختلاف الزمان والمكان وتنوعت بتنوع الجمهور الأدبى المحتاج إلى هذه الشروح ..

---

(١) تاريخ آل سلجوق ، ص ٣٣ .
(٢) تاريخ آل سلجوق ، ٥ ص١٢٧ .
(٣) ابن الأثير ، ١٠-٦٧ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٠-١٢٣
(٥) المصدر نفسه ١٠-١٢٣ .
(٦) معجم الأدباء ٧-٢٨٧ .
(٧) معجم الأدباء ٧-١٩٨ .
(٨) أنظر ثبت أسماء العلماء الذين تولوا التدريس فى المدارس النظامية بجميع أنحاء الدولة الإسلامية فى كتاب « تاريخ التربية الإسلامية » ، ص ٢٣٣ . وما بعدها .

ففي العصر الجاهلي – حيث الأدب متأثر بالبيئة وطبيعة المجتمع وظروفه الحضارية والثقافية الماثلة فيه .. كان الشاعر وفنه وجمهوره شركاء في ذلك التأثر ، تربطهم وحدة البيئة واللغة والفن والثقافة .. فلم تكن هناك حاجة ملحة لشرح الشعر ، لأن هذه الوحدة ، ألفت بين العقول ، ووحدت الألسنة فاللغة لغتهم ، وهي على صفائها ونقائها ، مبرأة من الشوائب والغوامض ، والشعر شعرهم ، يجري على ألسنتهم جريان الدم في عروقهم ، والجمهور الأدبي ، متحد الثقافة والاهتمامات ، يفهم الشعر سليقة ، ويدرك معانيه فطرة وإلهاماً ، ويعرف عناصره ومقوماته .. وأيامه ومناسباته . كل ذلك جعل حاجة القوم إلى شرح الشعر قليلة .. اللهم بعض التساؤلات البسيطة الناتجة عن اختلاف اللغات ، أو تباين اللهجات .

وفي عصر صدر الإسلام – يكاد يكون الوضع مماثلا ، فالشعر كان امتدادا للشعر القديم ، له سماته نفسها ، وخصائصه عينها ، سار على نفس المنهج والأسلوب السابقين ، وإن زانته ردية الإسلام التشبيبة .

والشاعر هو هو الشاعر القديم ، وإن غمرت جوانب نفسه بعض أضواء إسلامية .

وأما الجمهور – فقد كان امتداداً للجمهور القديم ، عربيا أصيلا ، يتذوق الشعر سليقة ، ويعرف مضمونه طبعا .. لذلك استغنى أيضا عن المساءلة ، وطلب تفسير الشعر ، لأن حاجته الثقافية لم تحس بنقص أو ضعف – فيما يتصل بالشعر – إنما كانت حاجته الملحة ، التي تلهب خاطره ، وتستحوذ فكره ، وتحرك مشاعره ، تتجه إلى تفسير القرآن .. فكان اهتمامه بالشعر عاملا مساعدا على تفهم القرآن الكريم لفظا ومعنى ، وقصصا ومثلا ..

ومن هنا كانت حاجته الثقافية إلى شرح الشعر ، مرتبطة بحاجة جلى . وغاية مثلى وهي تفسير القرآن .

أما بعد انطلاق اللغة العربية في ركاب الفاتحين ، وخروجها من بيئتها

البدوية ، وتغلغلها فى الأمصار الحضرية ، وتعرضها للأخطار — نتيجة لاعتناق الشعوب الأعجمية الإسلام ، واتخاذهم لغته لسانا — فقد تغير الوضع ، وتعقد الأمر ، وانفرط العقد العربى الفريد ، عقد الوحدة الأدبية بمقوماتها ، الذى يربط بين الشعر والشاعر والجمهور .. فتغير الشعر ، وتبدل الشاعر ، وأصبح الجمهور غير الجمهور القديم ، وانزلقت الألفاظ الأعجمية على الألسنة ، وفشا اللحن ، وضعفت السليقة اللغوية ، وولت الفصاحة ... فكان على زعماء حركة التنقية اللغوية أن يتدخلوا لوقف هذا الزحف السارى إلى ألسنة العرب عامة ، والشعراء خاصة ، وأن يحافظوا على سلامة اللغة من كل ما يشوبها ، أو يضعف مقدرتها على التعبير ، وأن يرتفعوا بأذواق القوم ، ويرجعوا بها إلى عصر النقاء والسليقة والطبع .

من أجل ذلك ساروا فى مسارات متعددة ، كلها تؤدى إلى هدفهم المنشود وهو محاربة اللحن بأنواعه وظواهره ، وحماية اللغة ، وكانت وسيلتهم فى ذلك الإرشاد والتقويم ، ثم التأليف والتصنيف فيما يتصل بتقويم اللسان ، وإصلاح المنطق ، وأخيراً التعليم .. وقد اتخذ نشاطهم فى سبيل ذلك مظهرين هامين :

الأول : لغوى .

والثانى : أدبى .

ولقد أنتج النشاط اللغوى — تقعيد اللغة وضبطها ، وتقنين النحو ووضع أصوله .

أما فيما يتصل بالنشاط الأدبى ، فقد رأوا أن يضعوا أمام الجمهور الأدبى النماذج العربية الفذة ، بكل تجاربها وعناصرها لتكون مثلا أعلى للفصاحة والبيان ، بما تحتويه من قيم عربية أصيلة ومثل بدوية عريقة ، ومعانى أخلاقية كريمة ، ومقدرة على النظم ، وتطويع الكلم وفقاً لما يعتمل فى الذهن ، وتترجمه القرائح ..

رأوا — فى سبيل غايتهم — أن يرجعوا بلغتهم إلى الأصل .. إلى أصلها العربى القديم ، ومحاكاة أجدادهم الأقدمين .. فكان أن رحلوا إلى الوادى ،

يقتطفون ثمار العربية الفصيحة ، من أفواه أصحابها فى أزيائها المختلفة — شعراً أو نثرا ، حكماً أو مثلا — فجمعوا الأشعار وصنفوا الدواوين واختاروا المختارات ، ووضعوا ذلك كله أمام بصر الجمهور الأدبى وذوقه ، ليكون لهم زادا ، يعتمدون عليه اعتمادا ، بيد أن هذه الأشعار جاءت إلى بيئة حضرية ، تختلف عن بيئتها البدوية ، وكانت بعيدة عن الأفهام ، غريبة عن الأذهان ، فكان على العلماء أن يذللوا صعبها ، ويشرحوا غامضها ، ويحللوا معانيها ، ويذكروا مناسباتها .. تارة عن طريق التعليم العام ، فى المساجد والمجالس وحلقات العلم المختلفة ، وأخرى عن طريق تصنيف الدواوين ، وتأليف الشروح . فكانت الحاجة الثقافية إلى شرح الشعر وتقريبه ، مرتبطة بالحاجة التعليمية التى نشأت نتيجة لضعف السليقة العربية — فى الأمصار والأقطار — لبعد القوم عن أصل اللغة وبيئتها ، وغلبة الحياة الحضارية المترفة عليهم .

لقد بذل العلماء جهدهم وعلمهم من أجل شرح الشعر ، يحدوهم فى ذلك إشباع نهم الجمهور الأدبى المتعطش إلى الفن العربى الأصيل ، وصقل ذوقه وجذب انتباهه نحو الأخلد والأرقى والأعرق من الأدب . هذا فيما يتصل بالجمهور الأدبى ، بيد أن هؤلاء العلماء كان يستحوذ على اهتمامهم جمهور آخر ، له قيمته ومكانته ، وهو جمهور الشعراء الذين كان اهتمام العلماء بهم كبيراً ، خاصة أولئك الذين لان شعرهم ، وضعفت سليقتهم ، وحادوا عن الأسلوب الفصيح ، ومارسوا استخدام الأسلوب المولد . فكان على العلماء — بالإضافة إلى شرح الشعر القديم — أن يدلوا هؤلاء الشعراء على مواضع الضعف فى شعرهم ، ويحاولوا جبر نقائصهم ، وتبصيرهم بنقاط الضعف فى نتاجهم ، وأن يعرضوا لهم نماذج من الفن الشعرى المتكامل ، بعد تذليلها وتحليلها ، وإبراز مواطن القوة والجمال فيها .

ومع مرور الزمن ، اتسع نشاط علماء حركة التنقية اللغوية ، وتعددت اهتماماتهم واتجهت إتجاهات متعددة ، كان من أهمها حماية اللغة العربية من التصحيف والتحريف ، الذى طرأ على اللغة ، وأدى إلى تغيير معانى الكلام إلى غير المعنى الحقيقى المقصود ، نتيجة للعوامل العديدة التى ذكرناها تفصيلا

وبعضها ناتج عن اللغة أصلها ، وبعضها خارج عن نطاقها .. فكان على العلماء التحرك لمحاربة مجمع الآفات ، وهو التصحيف .. واتخذوا لذلك طريقين :

أولهما : إبراز التصحيف وتحديده .

وثانيهما : معالجته بشرحه وتوضيح مدلوله ، وذكر صحته ، وتقديم الشواهد الممكنة من أشعار العرب على وجهه الصحيح .

وهكذا برزت حاجة أخرى تقتضى الشرح والتفسير ، والتحليل والتعليل فكان شرح التصحيف صورة أخرى من الصور العلمية الهامة ، التى أوجبتها الحركة العلمية للمحافظة على اللغة العربية ، واستهدفت بالضرورة تصويب لغة الشعر ، وتحقيق روايته ، ثم تقديمه إلى الناس صحيحاً مذللا ، دون لبس أو غموض .

ومن المهم أن نعرف أن الحاجة الثقافية التى أدت إلى شرح الشعر — كانت تستهدف عدة أمور .. أهمها :

١ — ربط جمهور السامعين والقارئين — شعراء وغير شعراء — بتراث أجدادهم ، وإبراز مفاخرهم وتاريخهم ، والتمسك بتقاليدهم .

٢ — تحليل النصوص الشعرية وإلقاء الضوء على مواطن الجمال أو القبح ، وتقريب ذلك للسامعين .

٣ — توضيح التراث الأدبى والثقافى القديم ، الذى يربط بين حاضر العرب وماضيهم للرد على الشعوبيين والطاعنين .

٤ — تعليم النشء ، وبث روح القومية العربية فى وجدانهم وأسماعهم .

٥ — تفسير الغريب والنادر الذى وقف حجر عثرة أمام أذهانهم ، وأفهامهم نتيجة لصعوبة اللغة من ناحية . وبعد القوم عن البداوة من ناحية أخرى

٦ — تقويم الألسنة ، وتهذيب الأذواق ، بتقديم المستحسن والمستحب والفصيح من شعر العرب وكلامهم ، لمحاكاته والتمثل به .

٧ — شرح الشواهد اللغوية والعلمية ، التى تبرز الظواهر والقوانين والقواعد التى وضعها العلماء فى مجالات البحث المختلفة .

٨ – سد الحاجة العلمية الخالصة التى شعرت بها الأمة الإسلامية ، حين تقدمت فى دراسة العلوم المختلفة ، واحتاجت إلى مدد من شعر العرب .

٩ – صناعة الشروح ، بعد مرحلة جمع الشعر وترتيبه وتبويبه .

١٠ – تطعيم كتب الأدب والثقافة العامة ، التى تشتمل على الشعر والنثر جميعا خدمة لطلاب العلم والمعرفة .

فإذا انتهينا الآن من دراسة الحاجة الثقافية .. فلننتقل الآن لنتتبع الشروح نفسها منذ نشأتها ، وندرس مراحل تطورها المختلفة ، والعوامل المؤثرة فيها .